التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي - مملكة البحرين SDPA 499 العدد 161 السنة التاسعة عشر - إبريل 2021

التوازن المالي
أداة أم هـدف؟

موقفنا

مَن يُحاسب مَن؟

أشار تقرير لجنة التحقيق البرلمانية في أوضاع صناديق التقاعد، إلى أن الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي لم تتعاون معها، معتبراً هذا الموقف خرقاً للدستور والقانون، من خلال عدم الالتزام بتمكين اللجنة من ممارسة دورها الرقابي في التحقيق، كما أشار التقرير إلى أن الهيئة «امتنعت عن تزويدها بالعديد من الأمور الهامة من بيانات»، بالإضافة إلى أنها: «قامت بتمويه وتضليل اللجنة من خلال التعمد في تقديم أرقام غير حقيقية فيها فروقات تصل إلى أكثر من 900 مليون ديناراً». ولما بدا الأمر مكشوفاً، ولن ينطلي على أعضاء اللجنة ولا على الرأي العام، تداركت الهيئة ذلك لاحقاً وطلبت استبدال تلك البيانات التي قالت إنها أُرسلت بالخطأ.

وفي مداخلته في جلسة مجلس النواب لمناقشة تقرير اللجنة، اكدّ عضو كتلة «تقدّم»، النائب الأول لرئيس مجلس النواب عبدالنبي سلمان «وجود تلاعب من قبل الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي بالأرقام التي قدمتها إلى لجنة التحقيق البرلمانية، قائلاً إن «تقرير اللجنة بيّن تلاعب رئيس مجلس إدارة الهيئة عبر تسليم اللجنة بيانات مغلوطة قبل أن يتم ارسال بيانات أخرى مصححة حسب الهيئة».

وعلى فداحة كل هذا التضليل والمعلومات المغلوطة، لم يقف الأمر عند هذا، بل بلغ حدّ تهديد رئيس الهيئة بمقاضاة أعضاء اللجنة، لدورهم في كشف أوجه القصورات والتلاعب في أموال الهيئة، وكشف الكثير من أوجه الفساد في عمل الهيئة والقائمين عليها، فضلاً عن فضح الامتيازات التي يمنحها هؤلاء لأنفسهم، ومن أموال المتقاعدين والمشتركين، في ظل غياب الشفافية والمساءلة والرقابة على عمل الهيئة.

نحن بصدد وضع مقلوب لا يليق ببلد يوجد فيه برلمان منتخب، حين يهدد مسؤول من داخل السلطة التنفيذية بمعاقبة نواب منتخبين من الشعب، فقط لأنهم قاموا بالدور الذي يمليه عليهم الواجب، والتزاماً بالتكليف المعهود إليهم من مجلس النواب نفسه، بالتحقيق في أداء جهة مؤتمنة على أموال تتصل بحياة ومصائر أبناء الشعب، وهو أيضاً دور معهود إليهم من ناخبيهم، ومن كل أبناء الشعب الذين يريدون أن يكون أعضاء مجلس النواب في مستوى المسؤولية التي أوكلوها إليهم، ويظهروا الشجاعة والنزاهة في مواجهة الفساد، وحماية المال العام.

مسؤولية السلطة التشريعية هي الرقابة على أداء السلطة التنفيذية، ومحاسبتها على أي تقصير تقع فيه أجهزتها والمسؤولون في هذه الأجهزة والوزارات، ومعيب للغاية أن يتجرأ أي مسؤول على نواب انتخبهم الشعب ووفوا بوعدهم لناخبيهم بإيصال أصواتهم إلى قبة البرلمان.

التقدمي

التوصية رقم ٤٧ — 03

«الهيئة» ... والنواب «المفترون» — 08

رحيل عازف السكسفون — 34-35

في احتفالية "التقدمي" في الثامن من مارس

القضاء على العنف وتحقيق المساواة بين الجنسين والتمكين

اعتبرت رئيسة قطاع المرأة في المنبر التقدمي خديجة الصائغ أن: "قضايا المرأة البحرينية هي قضايا كل مواطن، وأنها تخص~ المرأة والرجل معاً، وتعني المجتمع والدولة على حدٍ سواء، لأنها قضايا التكامل والبناء والمستقبل"، مشددة على أهمية: "تبني كل الخطوات والسياسات والبرامج التي تحقق هذا الهدف وتصبو إليه".

وقالت الصائغ في احتفال للمنبر التقدمي بمناسبة الثامن من مارس اليوم العالمي للمرأة، بأن: "العالم يحتفل هذا العام تحت شعار "المرأة في القيادة: تحقيق مستقبل متساوٍ في عالم كوفيد-19"، وذلك احتفاءاً بالجهود الكبيرة التي بذلتها ولا تزال تبذلها المرأة حول العالم في تشكيل مستقبل أكثر مساواة والتعافي من جائحة كورونا، إلى جانب التأكيد على أولويات عديدة تستهدف النهوض بواقع المرأة وفتح آفاق جديدة يعزز من دورها، وفي المقدمة منها المشاركة الكاملة والفعالة في الحياة العامة، وكذلك القضاء على العنف، وتحقيق المساواة بين الجنسين والتمكين وغيرها من الأولويات".

وأشارت إلى أن: "قطاع المرأة في المنبر التقدمي يحيي بتقدير كبير الجهود الطيبة والبارزة لكل من وقفن في الخطوط الأمامية من العاملات البحرينيات في مجالات الرعاية الطبية والتمريضية والخدمات المساندة وفي غير ذلك من الأعمال والمهن، والتقدير والثناء موصولين لكل الجهود النسائية في كافة مجالات العمل والانتاج والحياة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية، وكذلك على صعيد الجمعيات والمنظمات الأهلية، مثمنين عالياً كل من تركن بصمات واضحة ومؤثرة ضمن جهود مواجهة جائحة كورونا والتعافي منه".

٧٥٪ من فريق مكافحة «كورونا» نساء

من جانبه، أشار الأمين العام للمنبر التقدمي خليل

يوسف إلى أن: «75٪ من العاملين في الفريق الوطني لمكافحة فيروس كورونا هن من النساء، بحسب احصاءات رسمية عن المجلس الأعلى للمرأة»، منوهاً ب «الدور الذي لعبته المرأة البحرينية في مواجهة جائحة كورونا من طبيبات، وممرضات، وعاملات، معلمات، وفي كل موقع عمل». وأشاد بالدور الفاعل الإيجابي والمؤثر الذي نهضت به المرأة البحرينية، ونضالاتها وعطاءاتها ودورها في عملية التطوير والتنمية المستدامة وسعيها مع الرجل في التغيير وتحقيق الآمال والطموحات وبناء تجربة ديمقراطية حقة».

وقال يوسف بأن: «إن مناسبة اليوم العالمي للمرأة أصبحت موعداً للاحتفاء بإنجازات المرأة في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في حين أن جذور هذه المناسبة ترتبط بحراك عمالي وبكفاح الحركة النسائية من أجل المساواة بين الجنسين وبغية تمتع المرأة بحقوقها كإنسان وشريك للرجل وعضو كامل في المجتمع الإنساني وهذا ما انعكس في مجموعة من الوثائق والمعاهدات التي أقرتها غالبية الدول والمنظمات الإنسانية المعبرة عن الإرادة الحرة والشاملة للمجتمع الدولي».

إلى ذلك، عبرت رئيسة الاتحاد النسائي البحريني بدرية المرزوق عن تقدير واعتزاز الاتحاد لمواقف المرأة المضيئة في البحرين والعالم في مواجهة الجائحة بكل شجاعة وعزم، وأشادت بدور النساء العاملات وبالأخص اللائي يعملن في الصفوف الامامية والدور البطولي الذي قمن به من الطبيبات والممرضات والكوادر الطبية والفنية والموظفات والعاملات في مواقع عملهن الحكومي والخاص.

على صعيد متصل، دعت النقابية سعاد المبارك إلى انصاف المرأة العاملة لما سببته انعكاسات جائحة كورونا السلبية، مشيرة إلى أنه رغم مرور عام على الجائحة إلا أن الوضع الاقتصادي لازال في تفاقم وتأثرت به المرأة بشكل كبير في العديد من المجالات والتخصصات، وقدمت تضحيات كبيرة في هذا الوضع المتأزم.

الحفل الذي أقيم في مقر «التقدمي» وبث على قناته على «يوتيوب»، أدارته الشابة أريج إبراهيم، اختتم بقصيدة للشاعرة جنان العود.

فيما اعتبرت الجمعيات السياسية تهديدات رئيس الهيئة سابقة خطيرة

التقدمي: «هيئة التقاعد» ليست أملاكاً خاصة لتدار كيفما يشاء القائمون عليها

شدّد المنبر التقدمي على رفضه لما أعلن عنه رئيس مجلس إدارة هيئة التأمين الاجتماعي من اتخاذ الإجراءات القانونية ضد عدد من النواب من أعضاء لجنة التحقيق البرلمانية في ملف الصناديق التقاعدية، وأكدّ بأنه كان يتعين على الهيئة بيان الحقائق وتفنيد ما أثير فيما يتعلق بعمل الهيئة دون عرقلة عمل لجنة التحقيق البرلمانية أو المساس بأحقية النائب في ممارسة دوره على صعيد إبداء الرأي أو ممارسة دوره في الرقابة والمساءلة.

وأكدّ التقدمي على: «الموقف البرلماني الحازم ضد كل محاولة يراد منها سلب النواب لدورهم في التحقيق والرقابة والمساءلة، والعمل على تعزيز دورهم وصلاحياتهم في هذا المجال للقيام بما هو في صميم عمل النائب ويمثل جوهر العمل البرلماني»، مشيراً إلى أن: «أي مساس بذلك يفقد المجلس النيابي دوره، ويختل معه القدر المتاح بين السلطات التي تعطى العضو البرلماني حق المجاهرة بأي وجه من أوجه الخلل والقصور»، مضيفاً: «وما على الجهة المعنية إلا بيان الحقائق وتفنيد الاتهامات بالحقائق والأرقام الموثوقة، ورد الحجة بالحجة والبينة بالبينة، وليس إطلاق التهديد والوعيد كما حدث من قبل رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي، وإلا فعليه أن يقدم اعتذاره وأن يتنحى ويفسح المجال لمن يدير الهيئة بكل كفاءة واقتدار وشفافية».

وشدّد التقدمي على أن: «المال العام ليس من الأملاك الخاصة، والهيئة العامة للتأمين الاجتماعي ليست هيئة خاصة تدار كيفما يشاء القائمون عليها»، وتابع: «لابد من الالتزام بكل مقتضيات الحوكمة والشفافية في كل مسارات عمل الهيئة ومجلس إداراتها، ولجنة التحقيق البرلمانية تقوم بواجبها المطلوب وعلى الهيئة تقبله وتشرّع كل الأبواب لكي تقوم اللجنة بالدور المطلوب منها على خير وجه دون إعاقات أو تقديم معلومات مغلوطة أو منقوصة أو إرباك أو غموض للحيلولة دون قيام النواب بواجبهم المفترض، أو ترهيب أي من النواب لعدم التعبير عن آرائهم أو كشفهم بعض الخبايا»، داعياً إلى: «موقف برلماني ثابت وموحد تجاه من يريد أن تكون الرقابة شكلاً من أشكال التبعية أو المهادنة لمواطن الخلل وسوء الإدارة والفساد والتلاعب بالمال العام».

على صعيد متصل، استنكرت الجمعيات السياسية بشدة تهديدات رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي، وما لوّح به من امكانية قيام الهيئة باتخاذ الإجراءات القانونية حيالهم، وأكدت الجمعيات بأن هذه الخطوة مرفوضة رفضاً قاطعاً وتشكل خطوة غير مسبوقة في تاريخ التجربة البرلمانية، وسابقة خطيرة تمس جوهر العمل البرلماني الذي نصّ عليه دستور مملكة البحرين في مادته (89) والتي تنص بأنه «لا سلطان لأية جهة على عضو مجلس النواب في عمله بالمجلس أو لجانه، ولا تجوز مؤاخذته على ما يبديه في المجلس أو لجانه من آراء أو أفكار».

وعبرت الجمعيات السياسية (المنبر التقدمي، المنبر الوطني الإسلامي، تجمع الوحدة الوطنية، الصف الإسلامي، الوسط العربي الإسلامي، والتجمع الوطني الدستوري)، عن شجبها لتهديدات رئيس مجلس إدارة هيئة التأمين الاجتماعي للنواب، وترى بأنه ينطوي على ترهيب لكل من يريد من النواب أن يمارس دوره وحقه الدستوري في الرقابة والمساءلة باستخدام التهديد والوعيد، ومحاولة جرّ لجان التحقيق البرلمانية للخروج بنتائج تتوافق مع هوى الجهة التي تخضع للتحقيق، أو فرض وصايات على تصريحات أعضاء هذه اللجان بذريعة عدم التشكيك في نزاهة القائمين على إدارة الهيئة، وإلا اعتبرت تجاوزاً يتوجب أن تتخذ الإجراءات القانونية تجاهه في تجاهل فاضح للحصانة البرلمانية وللحق الدستوري وللتوجيهات بالتعاون والتكامل مع السلطة التشريعية، وتعارضاً مع السياسات الحكومية المعلنة مؤخراً فيما يخص الشفافية والمساءلة والمحاسبة.

فضفضة

عيسى الدرازي

التوصية رقم ٤٧

قضيتان شغلتا الشارع مؤخراً؛ مكتسبات المتقاعدين ووضع صناديق التقاعد المخلخل، والأخرى تزايد العاطلين عن العمل وعلو شكواهم من غياب التوظيف المناسب لمهاراتهم وتأهيلهم العلمي. وكلا القضيتين حلهما مرتبط بالآخر.

لجنة التحقيق البرلمانية التي قدّمت تقريرها مؤخراً بعد 4 أشهر من الزيارات والاجتماعات واللقاءات تمخض عنه ما يقرب من خمسين توصية رفعها المجلس للحكومة لتطبيقها وتنفيذها على أرض الواقع حفاظاً على ما تبقى من أموال المتقاعدين والمشتركين، التي لم يكفّ الخبير الإكتواري عن التلويح بنفادها قريباً وقريباً جداً.

وكان من ضمن تلك التوصيات الساعية إلى إعادة وضع صندوق التقاعد في مأمن عن خطر الافلاس التوصية رقم 47: «زيادة عدد المشتركين من العمالة الوطنية في صناديق التقاعد، وذلك من خلال توظيف العاطلين». فإحدى وسائل رفد الصندوق بالموارد اللازمة التي من خلالها يستطيع مغادرة المنطقة الحمراء تضرب عصفورين بحجر واحد.

الغريب أن العاطل عن العمل يعاني بحثاً عن فرصة ومنفذ لسوق العمل، والموظف يعاني خوفاً من غده، وما إذا كان يستطيع أن يتقاعد قبل أن يباغته المرض والموت، وصغار مرتادي الأعمال يعانون بسبب التنافس غير الشريف بينهم وبين كبار السوق من جهة، وبين القرارات الوزارية التي تساوي صاحب مدخول خمسين دينار وصاحب الأرباح المليونية من جهة أخرى.

والمتقاعد يعاني الأمرّين، مرٌّ لقوت يومه ومعاشه التقاعدي الذي يتآكل ويصبح في مرمى الداعين إلى إصلاح صندوق التقاعد عبر بوابة جيوب الفقراء، والمرُّ الآخر الذي يعانيه هذا المتقاعد هو ما يحمله في رقبته من أبناء يعانون، بدورهم، كونهم مشمولين بما سبق ذكره، فمن بات لا يعاني إذاً؟ سؤالٌ ذو شجون.

زينل: 45 ألف موظفاً مقبلين على التقاعد وفرصة للعاطلين

قال النائب يوسف زينل إن مملكة البحرين مقبلة وبحسب توقعات الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي على موجة تقاعد جديدة، قوامها أكثر من 45 ألف موظف موزعين على القطاعين العام والخاص، وزمنها العام الحالي والعام المقبل.

ولفت زينل إلى ضرورة النظر إلى ذلك بوصفه فرصة من أجل توظيف آلاف العاطلين من أبناء البلد، خصوصا في القطاع العام الذي تتوقع الهيئة تقاعد أكثر من 12 ألف موظف منه في عامي 2021 و2022.

وأضاف: «كذلك الحال بالنسبة للقطاع الخاص الذي تشير توقعات الهيئة إلى تقاعد أكثر من 33 ألف موظف فيه، بما يشكل ضعف عدد المتقاعدين من القطاع العام لنفس الفترة».

«الوطن» – 2021/3/21

«سجلي» يثير استياء المشاريع الصغيرة

تسبب قرار وزارة الصناعة والتجارة والسياحة بفرض رسوم تسجيل قدرها 178 ديناراً ورسوم تجديد سنوية قدرها 158 ديناراً، على اصحاب المشاريع التجارية المنزلية الصغيرة استياءً شديداً. حيث أدى القرار لردة فعل صاخبة على وسائل التواصل الاجتماعي وتصدر وسم «سجلي ضد لقمة عيشي» منصة «تويتر» والتي طالب من خلالها المغردون بالتراجع عن هذا القرار وخصوصاً في ظل الأوضاع الاقتصادية الراهنة بفعل جائحة كورونا.

ردة الفعل الشعبية الواسعة على القرار الوزاري أدت إلى إعلان مجلس الوزراء إتاحة إمكانية الاختيار لممارسي تلك الأنشطة من المواطنين ما بين الانضمام الطوعي المجاني دون أية رسوم لبرنامج «خطوة» للأسر المنتجة تحت إشراف وزارة العمل والتنمية الاجتماعية والاستفادة من مميزات البرنامج أو الانضمام لبرنامج «سجلي» المخصص للسجلات التجارية الخاصة بالأنشطة التجارية التي يمكن أن تمارس عملها من خلال محل تجاري افتراضي تحت إشراف وزارة الصناعة والتجارة والسياحة وفق الاشتراطات التنظيمية له، مع الاستفادة من حزمة المميزات المخصصة للمؤسسات التجارية ومنها برامج دعم «تمكين» والجهات الأخرى أو التمويلات البنكية أو التنافس على المناقصات.

كما وافق المجلس على مذكرة وزير الصناعة والتجارة والسياحة بشأن البرامج الحكومية المتاحة لتنظيم نشاط البيع عن طريق الانترنت ونشاط الطاهي ومنها برنامج «سجلي» لوزارة الصناعة والتجارة والسياحة وبرنامج «خطوة» لوزارة العمل والتنمية الاجتماعية وما تتضمنه تلك البرامج من مميزات، كما بينت المذكرة ما تقدّمه تلك البرامج من حفظ لحقوق المستهلكين من خلال الالتزام بالأنظمة والإجراءات المنظمة لذلك.

تسريح بحرينيين إثر انتهاء عقد شركتهم مع «الصحّة»

فقد 23 سائقًا بحرينيًا في إحدى الشركات الخاصة وظائفهم، إثر انتهاء العقد المبرم مع وزارة الصحة الممتد لأكثر من 10 سنوات.

وقال الموظفون المسرَّحون لـ«الأيام» إنهم تلقّوا إخطارًا رسميًا بالفصل من الشركة، إذ كانوا سائقين للمركبات التابعة لوزارة الصحة، بعد خدمة استمرت لسنوات طوال.

وأشاروا في حديثهم إلى أنهم عملوا في الصفوف الأمامية منذ تسجيل أول إصابة بفيروس كورونا في المملكة، عبر توصيل العينات من مراكز الفحص إلى مختبرات وزارة الصحة، ولم يتردّدوا بتاتًا في أداء جميع المهمات الموكلة إليهم خلال هذه الجائحة.

وأضافوا: «نتيجة لخدمتنا في الصفوف الأمامية، أصيب معظمنا بفيروس كورونا، وفقدنا أحبتنا نتيجة انتقال العدوى وإصابتهم بالفيروس، لنكافأ مؤخرًا بالفصل من العمل دون سابق إنذار!».

وتساءلوا إذا كان من حق الشركة قانونيًا تسريحهم من العمل بحجة انتهاء المناقصة، فإذن «من أين سنستطيع توفير سبل العيش الكريم لأسرنا؟».

وناشد المسرَّحون، في ختام حديثهم، سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء، للتدخل وإنصافهم من خلال إعادتهم إلى وظائفهم، حفاظًا على عوائلهم من التشتت والضياع، مؤكدين أنهم على أتم الاستعداد لمواصلة العمل مضحّين بالغالي والنفيس، والعمل يدًا بيد للتصدي لجائحة فيروس كورونا المستجد.

«الايام» – 2021/3/15

كاريكاتير
خالد الهاشمي

نقلاً عن حساب الفنان على «انستجرام»

1700 أجنبي في «ممتلكات» بعقود قيمتها 35 مليون ديناراً

كشف كمال بن أحمد وزير المواصلات والاتصالات، عن وجود 1702 أجنبي يعملون بشركة ممتلكات و13 شركة تابعة لها خلال العام الماضي 2020، بقيمة عقود سنوية تبلغ حوالي 35 مليونا 585 ألف دينار.

وذكر الوزير بشأن عدد الموظفين الأجانب في شركة ممتلكات، أن عددهم في شركة ممتلكات البحرين القابضة في 2020 بلغ 11 أجنبيا بقيمة عقود سنوية بلغت 690 ألف ديناراً، مضيفا أن نسبة البحرنة بلغت 85.71٪، وأنه لا يوجد موظفون أو مسؤولون أجانب في إدارة الموارد البشرية، مبينا أن العقود الخارجية في الشركة في 2020 بلغت نحو 16 ألف ديناراً، وهي عقد تنظيف «غير بحرينيين».

وأضاف أن شركة ممتلكات تعمل على إعطاء الأولوية لأصحاب الكفاءات المتخصصة عند التوظيف وتتميز بارتفاع نسب البحرنة لديها كما تعمل على وضع خطط التدريب والإحلال بهدف نقل الخبرات والمعارف للبحرينيين لديها، بالإضافة إلى سعيها المتواصل نحو توفير فرص عمل جديدة ونوعية ضمن قطاعات واعدة من خلال دراسة الفرص الاستثمارية المحلية للاستثمار فيها والتي من شأنها إيجاد فرص عمل جديدة.

«أخبار الخليج» - 2021/3/21

تراخي "الهيئة" ضيّع عشرات الملايين

برلمانية «التقاعد»: نحتاج إدارة جديدة كفؤة ومشاركة مجتمعية واسترجاع المبالغ المشطوبة

قالت لجنة التحقيق البرلمانية بشأن صناديق التقاعد في تقريرها النهائي بأن هناك ضعفاً كبيراً في إدارة الاستثمار، مما أدى إلى تدني عوائده الموصي بها من قبل الخبير الإكتواري على ألا تقل عن 6٪ سنوياً مما ساهم في تردي أوضاع الهيئة المالية. وكشف التقرير عن تراخي في متابعة مستحقات الهيئة سواء من الحكومة أو شركات القطاع الخاص، مما ضيّع مبالغ كان لاستردادها وتشغيلها ضمن استثمارات الهيئة المردود الإيجابي.

وبيّن تقرير لجنة التحقيق أن: «الهيئة فشلت فشلاً ذريعاً في تحصيل المستحقات بعشرات الملايين وضياع استثمارات مقدراها حوالي 17 مليون ديناراً». وأشار إلى أن: «الهيئة لم تقم بواجباتها ومسؤولياتها القانونية فيما يتعلق بإعداد دراسة اكتوارية بشأن التقاعد الاختياري».

وقال تقرير اللجنة إنه: «عند تقليص المصروفات الحكومية، بدأت الحكومة بنفسها بخفض مصروفاتها، على عكس الهيئة التي بدأت بتقليص مزايا المتقاعدين، ومنها وقف الزيادة السنوية على المتقاعدين دون أن تبدأ الهيئة بنفسها، وذلك عن طريق قيامها بتعظيم استثماراتها وتقليل مصروفاتها»، وتابع: «كان من الأولى بالهيئة أن تخفض مصروفاتها إلا أنها استمرت لسنوات حتى الآن في استئجار مبانٍ للهيئة والشركات المملوكة لها في أماكن راقية، وتركها للأراضي غير المستثمرة والمملوكةً لها، وعدم استغلالها في بناء مبنى خاص لها ولشركاتها».

وأوصى تقرير اللجنة: «بالتزام الهيئة بوضع استراتيجياتها واعتمادها من مجلس الإدارة قبل البدء في التنفيذ مع ضرورة المشاركة المجتمعية مع المواطنين الخاضعين للتشريعات التقاعدية عند إعداد الاستراتيجية وعقد ورش العمل والندوات بخصوص ذلك قبل إقرار الخطة الاستراتيجية»، وكذلك أكدّ على ضرورة: «التزام الهيئة باتخاذ كافة الاجراءات القانونية للمطالبة بكافة الاشتراكات المترتبة على الشركات والمؤسسات الخاصة، واتخاذ كافة الاجراءات من أجل استرجاع جميع مبالغ الاستثمارات المشطوبة».

ودعا التقرير إلى: «تشكيل إدارة جديدة من ذوي الكفاءات والخبرة في مجال التأمين الاجتماعي والاستثمار لتتولى إدارة الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي والشركات التابعة لها».

ومن ضمن توصيات التقرير: «وضع حد أدنى للأجور التأمينية للأجانب بصناديق التقاعد، للقضاء على الأجور الصورية غير الصحيحة، وزيادة نسبة عدد المشتركين إلى عدد المتقاعدين عن طريق إدخال العمالة الأجنبية في صناديق التقاعد من خلال النظام الإدخاري لمعالجة العجز في صناديق التقاعد».

وأكدت توصيات التقرير على: «ضرورة سداد الحكومة لتكلفة السنوات الافتراضية التي دفعت للمتقاعدين ضمن برنامج التقاعد الاختياري»، بالإضافة إلى: «توجيه الاستثمار في الودائع المالية في البنوك والمؤسسات المالية، بحيث تدر أكبر عوائد ممكنة وتوجيه الاستثمارات للمشاريع ذات القيمة المضافة التي توفر فرص عمل للمواطنين».

ودعت التوصيات أيضاً إلى: «توحيد مزايا التقاعد في كل من قانون التأمين الاجتماعي وقانون تنظيم معاشات ومكافآت التقاعد لموظفي الحكومة، بناء على دراسة إكتوارية»، داعية إلى: «التزام الحكومة بعدم طرح أي برامج للتقاعد المبكر سواء بالخصخصة أو بإعادة الهيكلة في الشركات الحكومية، إلا بعد إجراء دراسة إكتوارية مناسبة».

وأوصى التقرير: «بزيادة عدد المشتركين من العمالة الوطنية في صناديق التقاعد، وذلك من خلال توظيف العاطلين».

عبدالنبي سلمان لهيئة التأمين الاجتماعي:
التلاعب بالأرقام مرفوض وجيوب المتقاعدين ليست الحل

كشف النائب الأول لرئيس مجلس النواب النائب عن كتلة «تقدّم» عبدالنبي سلمان عن وجود تلاعب من قبل الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي بالأرقام التي قدمتها إلى لجنة التحقيق البرلمانية، قائلاً إن «تقرير اللجنة بيّن تلاعب رئيس مجلس إدارة الهيئة عبر تسليم اللجنة بيانات مغلوطة قبل أن يتم ارسال بيانات أخرى مصححة حسب الهيئة».

وشدد سلمان في مناقشته لتقرير لجنة التحقيق البرلمانية بشأن صناديق التقاعد على أنه: «إذا كان القائمون على إدارة الهيئة غير قادرين على أداء مهامهم على أكمل وجه فيجب تغييرهم حالاً، لأنهم يتلاعبون في مصير بشر ودولة ووضع اجتماعي وأمني واستقرار المواطن»، وتابع: «إن لم يكن رئيس مجلس الإدارة قادراً على إدارة الهيئة باقتدار عليه ان يقدم استقالته ويأتي آخر أكثر كفاءة»، مشيراً إلى أنه « تمّ تمرير الكثير من القرارات الاستثمارية والادارية وقرارات الاستملاك بدون اجتماع لمجلس الإدارة».

من جانب آخر، قال سلمان بأن: «استسهال الخسائر والفساد والتلاعب بالمال المال طوال اربعين عاماً منذ تأسيس هيئة التقاعد لا يجب ان يقع على عاتق المواطن البحريني، وكما حدث في استسهال ايقاف الزيادة 3٪ للتقاعدين»، مبيناً أنه «في الوقت الذي تقوم فيه الهيئة بشطب استثمارات قيمتها 17 مليون ديناراً بحجة أنها مبالغ بسيطة، تأتي على إلغاء الزيادة السنوية للمتقاعدين بحجة إنها ستضمن استمرارية الصناديق والكل يعلم ان الزيادة السنوية لا تكلف الصناديق أكثر من 16 مليون ديناراً سنوياً».

وتساءل: «لماذا اللجوء دائماً إلى جيوب المتقاعدين كأول الحلول، والتقرير يوضح مكمن تسرب الملايين من أموال الصندوق، فمنذ 27 عاماً والحكومة لم تدفع في صندوق التقاعد نسبة 3٪ لإصابات العمل للأجانب، وكذلك هناك ديون مشطوبة ولا يمكن انكار ذلك، فقد شطبت ديون بنك البحرين والشرق الاوسط، وبنك اركبيتا، محفظة بنك البحرين والكويت، القرض الممنوح إلى هيئة المعارض، كلها ديون معدومة».

على صعيد متصل، قال سلمان بأنه: «منذ العام 2002 تم تغيير أربعة رؤساء تنفيذيين مروا على الهيئة، واغلب من خرج منهم قد خرج برواتب مجزية كان آخرهم الرئيس التنفيذي السابق الذي منح 400 ألف ديناراً»، متسائلاً: «أليست هي أموال التقاعدين؟».

كما أوضح سلمان بأن:» لجنة التحقيق الحالية هي اللجنة البرلمانية الثالثة، لجنتان سبقتاها في 2002 و2014 ولم ينفذ من توصيات كلا اللجنتين سوى توصية الزيادة السنوية للمتقاعدين والمقدرة بـ 3٪ وقد تم إيقافها الآن»، وتابع: «أقر دمج صناديق التقاعد في 2008، وحتى الآن لم تنفذ هذه الخطوة ولازال لدينا 3 صناديق تقاعدية».

مطرقة البرلمان

ماذا بعد توصيات لجنة التحقيق الثالثة؟

ناقش مجلس النواب مؤخراً تقريرًا موسعًا للجنة التحقيق البرلمانية في أوضاع الصناديق التقاعدية وهيئة التأمينات الاجتماعية، وهو تقرير احتوى علي أكثر من ٥٠ توصية عرضت من خلالها اللجنة رؤيتها وجملة تصوراتها لكيفية معالجة أوضاع مستقبل الصناديق التقاعدية، التي باتت أوضاعها تنذر بالكثير من العواقب الوخيمة اجتماعياً واقتصادياً منذ قرابة العقدين، وتحديداً منذ تداعى أعضاء مجلس نواب ٢٠٠٢-٢٠٠٦ لتشكيل اول لجنة تحقيق برلمانية في دعاوى افلاس الصناديق التقاعدية.

عبدالنبي سلمان

الجدير بالذكر أن التقرير الذي نحن بصدده هنا، هو الثالث من نوعه، وكذلك هي اللجنة بطبيعة الحال، فقد تشكلت على مدى العقدين المنصرمين ثلاث لجان تحقيق برلمانية، مما يدلل بوضوح على مخاوف واهتمام الشارع البحريني بمختلف شرائحه من أوضاع ملف الصناديق التقاعدية وأوضاع التأمينات الاجتماعية، خاصة أن تشكيل اللجنة الأخيرة، جاء في خضم لغط كبير حول أوضاع التقاعد والمتقاعدين بعد صدور مرسوم ملكي الغيت بموجبه زيادة ال 3٪ السنوية بالنسبة للمعاشات التقاعدية بالإضافة الى ثلاث مواد أخرى ذات صلة، ثم تبع ذلك إحالة الحكومة لمشروع بقانون يتعلق بإصلاح وتعديل نظام التقاعد، والمرسوم والمشروع هما حاليا قيد المناقشة والتفاوض مع الحكومة في اللجنة المختصة بذلك.

علي هذه الخلفية جاء تشكيل لجنة التحقيق البرلمانية الأخيرة، والتي عبر بعض أعضاءها عن استياءهم أكثر من مرة من كيفية إدارة الملفات والتقارير الاكتوارية والاستثمارات، وصولا لإفصاحهم عن ارقام مغلوطة وردت في ما قدم للجنة من معلومات وتقارير كثيراً ما اثارت جدلاً وتعارضات علنية بين أعضاء اللجنة وهيئة التأمينات الاجتماعية، الأمر الذي استدعى التهديد برفع الأمر للنيابة العامة لوقف ما اعتبره رئيس مجلس إدارة التأمينات تعريضاً وتشويهاً لسمعة بعض المسؤولين في الهيئة، ولم يتم حسم هذه القضية بشكل تام حتى الآن، وهو بكل تأكيد تعبير عن الضيق غير المبرر للمعنيين في الهيئة بما عبر عنه ممثلو الشعب المؤتمنون، مثلهم مثل أعضاء مجلس إدارة التأمينات، على أموال واستثمارات الصناديق التقاعدية!

بطبيعة الحال لسنا هنا في وارد سرد التفاصيل التي تحدث عنها تقرير لجنة التحقيق والذي تجاوز عدد صفحاته الألف صفحة، لكننا بكل تأكيد حريصون على إيضاح موقفنا للرأي العام بصورة اكثر وضوحا، فملف التأمينات بقي على الدوام ملفاً مهماً بالنسبة لنا، وتحديداً منذ أن تقدّم رفاقنا في «كتلة الشعب» ومعهم أعضاء برلمان 1973 بقانون التأمينات الاجتماعية الذي بدأ العمل به منذ العام 1976، أي بعد حل المجلس الوطني حينها، كما تابع الشارع البحريني الموقف الصلب ل»كتلة النواب الديمقراطيين» في الفصل التشريعي الأول بعد استئناف الحياة النيابية، الداعي لوقف التلاعب بأموال ومقدرات المتقاعدين والمشتركين في هيئة التأمينات الاجتماعية، ووقف كل اشكال العبث غير المسؤول بأموال التأمينات الاجتماعية ابان لجنة التحقيق البرلمانية الأولى في برلمان 2002- 2006 .

وها نحن في كتلة «تقدّم» نساهم بجهد وافر هذه المرة في ما توصلت اليه لجنة التحقيق البرلمانية الثالثة عبر تقديمنا لمرئيات الكتلة، طارحين من خلالها حلولاً ومقترحات لإنقاذ التأمينات الاجتماعية وصناديقها التقاعدية مما ينتظرها من تراجعات وعجوزات وافلاسات تلوح في الأفق، متمنين أن يتمّ التعامل الرسمي هذه المرة مع ما طرحناه من حلول بالجدّية المطلوبة، وأن لا تركن تلك المقترحات والتوصيات جانباً مثل سابقاتها، بل يجب أن يتم الأخذ بها حفاظا على ديمومة واستمرارية الصناديق التقاعدية ومصالح المشتركين والمتقاعدين.

وباعتقادي أن تشكيل ثلاث لجان تحقيق خلال أقل من عشرين عاماً، يفصح بشكل واضح عن حجم القلق والمخاوف التي تنتاب الناس حيال مستقبلهم المعيشي والتقاعدي، معولين على ضرورة طمأنة الناس من متقاعدين ومشتركين في نظام التأمينات الاجتماعية على كفاءة وحسن إدارة أموالهم واستثمارات الهيئة، عبر قرارات وسياسات يجب أن ترسم بغرض تنمية تلك الاستثمارات والأصول بما يعود على أصحاب المصلحة من متقاعدين ومشتركين وعلى الاقتصاد الوطني والوضع الاستثماري في البحرين بمزيد من الفرص الاستثمارية الواعدة والتي يجب أن تقدّم بالفعل قيمة مضافة للاقتصاد الوطني وبما يحقق الاستقرار والنماء لتلك الصناديق التي آن الآوان لأن تدار بشكل حرفي ومهني وبعيدا عن أي ارتجال أو إملاءات او توجيهات غير مدروسة.

«الهيئة» ... والنواب «المفترون»

تهديد رئيس هيئة التقاعد بمقاضاة أعضاء لجنة التحقيق النيابية تجاوز الحدود، وتجاهل حصانة النواب وصلاحياتهم في مساءلة ومحاسبة السلطة التنفيذية.

هذا موقف فرض نفسه على الانتباه، وأفرز حالة من الأسى والاستياء معاً وبامتياز، وفرض تساؤلات راحت تتكدس حاملة المزيد من علامات التعجب المغمسة بكل ما يثير الدهشة التى تتعاظم مرتين فى الفعل وفى رد الفعل.

خليل يوسف

الحديث تحديداً عن ملف معقد ومتشابك ومتعدد العناوين والمضامين، والأنظار دوماً تتجه اليه، وبدا حياله وعبر شواهد عدة وكأن كل ما ليس معقولاً صار معقولاً وعادياً، وهذا أمر صادم لا ريب لاسيما انه يتصل بالهيئة العامة للتأمين الاجتماعي، والكل يعي ماذا تعنى هذه الهيئة ، يكفى القول انها واحدة من اهم الهيئات العامة ذات الارتباط الوثيق بمصالح قطاع عريض جداً من أبناء البحرين، وليس من قبيل المبالغة الاشارة الى علاقتها حتى بالسلم الأهلي.

فى ضوء الكثير من اللغط حول الهيئة العامة للتقاعد وجدنا رئيس مجلس ادارتها يصدر تصريحاً صحفياً فيه يرد على بعض النواب، تصريح فريد أثار الانتباه حقاً وفعلاً ، وكان مدعاة لتساؤلات كثيرة ، فهو فى الوقت الذى يؤكد حرصه على وجوب احقاق الحق بشكل قانونى فيما يخص التعاطي مع شؤون الهيئة، الا انه يعلن على الملأ بأن ما صرح به هؤلاء النواب حول هذه الهيئة العامة يشكل "اساءات علنية، وتهم زائفة لمؤسسة عريقة من مؤسسات الدولة المؤتمنة على مقدرات أبناء البحرين ومسؤولة عن توفير الحماية اللازمة للمواطنين عند الشيخوخة او المرض او العجز"، وعلينا ان نلاحظ بان الرجل شدد على ان ادارة الهيئة المؤتمنة على مقدرات أبناء الوطن ترفض الطعن والتشكيك فى نزاهة وكفاءة منتسبيها والتشهير بهم من خلال التصريحات ووسائل التواصل الاجتماعى دون أي اعتبار أو رادع. (الصحف المحلية – 4 مارس2021).

اما المفاجأة المذهلة فقد جاءت حين كشف الرجل للرأي العام بأنه "اضطر آسفاً لاتخاذ الاجراءات القانونية ضد بعض أعضاء لجنة التحقيق البرلمانية فى ملف صناديق التقاعد بذريعة إخلالهم بأخلاقيات من يمثل الشعب ونشر معلومات مغلوطة بما يزعزع ثقة المواطنين فى مؤسسات الدولة وتهديد استقرارهم الاجتماعي"، الى آخر القائمة من التهديدات المباشرة والمبطنة فى النوايا والأعمال، وكأنه يريد ان يرجع بنا الزمن إياه، وهذا أمر جدير بالرصد والتأمل خاصة حين يكون هذا الأمر مدعاة لسوء الظن وهو كما قال الأقدمون" من أقوى الفطن" !

الرجل لم يفوّت علينا أن نلاحظ دعوته للنظر جدياً – لا حظوا كلمة جدياً – فى عمل الهيئة، وجدية تعاملها مع لجنة التحقيق البرلمانية، ولا ينسى ان يلفت انتباه الجميع بأن الهيئة، وبكل شفافية، زودت اللجنة بالأرقام والبيانات التى طلبتها، وكأنه يقول للنواب المعنيين أن الهيئة تعرف واجباتها ولا تحتاج دروساً من النواب حول ما يجب ان تفعل، وليس أمامكم، يا نواب، إلا أن تقبلوا بهذه الأرقام والمعلومات، ولا خيار آخر لكم، والمطلوب منكم ان تتغنوا بإنجازات الهيئة، وتغضوا النظر عن كل ما يثير الشبهة فى مسارات عملها، ولا تنسجوا من حولها الأكاذيب والافتراءات فقد خاب من افترى وهى المكافحة من اجلكم والحريصة على مصلحتكم والمؤتمنة على أموالكم، والبراهين تحكى حالها لحالها وعلى المكشوف، واذا كنتم ترون او تصرّحون بعكس ذلك فان الاجراءات القانونية أمامكم.

لا ينبغي التهوين من ملف المتقاعدين وحقوقهم ومكتسباتهم، ويتوجب فتحه بكل شفافية وجرأة

نكرر بان هذا طراز فريد حقاً من التصريحات التى اراد صاحبها ان يبعث بأكثر من رسالة تبلغها الجميع بعلم الوصول، وكأنه اراد من خلال تصريحه أن يقول، وبعزم وثبات، أن الهيئة العامة للتأمين الاجتماعى باتت فوق مستوى الشبهات، وفوق أي قيل أو قال، وفوق مستوى النقد، وفوق أي رقابة أو مساءلة، صحيح أن رئيس مجلس إدارة الهيئة فى تصريحه الذى استفز الكثيرين لم ينس أن يؤكد على أهمية الدور التشريعي والرقابي للنواب، ويؤكد كذلك على "حرص الهيئة على التعاون الايجابى الدائم بين السلطتين التنفيذية والتشريعية بما يحقق مصلحة الوطن والمواطنين، وذلك من خلال التجاوب الدائم مع أعضاء مجلس النواب والرد على جميع استفساراتهم المتعلقة بعمل الهيئة" ..!، ولكنه كلام يسوغ لنا استحضار انه "تحصيل حاصل"، وهذا يعنى أنه كلام مفروغ منه، وأن البحث فيه غير مجدى، أو أنه بعيد جداً عن أن يكون مقنعاً.

الصحيح أيضاً أن هذا التهديد والوعيد الذى تضمنه التصريح وتجاوز حدود المقبول تجاهل صاحبه تجاهلاً فادحاً عدة أمور، ليس فقط حصانة النواب التى كفلها الدستور، وأحقيتهم فى السؤال والنقد وإبداء الرأي بكل حرية، و حريتهم فى تشكيل لجان التحقيق ومراقبة ومساءلة ومحاسبة السلطة التنفيذية، واستجواب الوزراء وفقاً لما نص عليه الدستور، وعلى أساس ذلك يُفهم بأن النائب غير خاضع لتهديد أو أهواء أي مسؤول كان، فى أي موقع كان، وأن تخليه عن هذا الدور هو تخلٍ عن واجب دستوري وتفريط فى مهام تفرض نفسها فرضاً.

الرجل تجاهل ان الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي هى مؤسسة عامة، ومسؤولية عن أموال عامة، ومعنية بحسن ادارة هذه الأموال، وتجاهل انه بوسع المرء ان يستخرج من الذاكرة، اومن الارشيف الصحفى، او من سجلات المجلس النيابي، وان يعود الى ما خرجت به عدة لجان تحقيق برلمانية تشكلت على مدى اكثر من فصل تشريعي ووثقت ما لا حصر له من المآخذات والخروقات حول ما يتصل بواقع حال الهيئة، وكفاءة ادارتها، وما شكل "ملفات ساخنة"، بالاضافة الى ما كان ولا زال يتردد فى الكواليس ليصل الى قناعة بان وضع هذه المؤسسة العامة مسكون بالقلق الذى يفتح الشهية لتساؤلات لازالت تبحث عن اجابات تشفى الغليل، كما تجاهل الرجل انه بالإمكان الرد الوافى والصريح والمباشر على تصريحات كل من تعرض من النواب من اعضاء لجنة التحقيق البرلمانية وان يوضح ما هو غامض او ملتبس فى اي من الأمور المثارة بدلاً من التهديد والوعيد على النحو الذى شهدناه وبإسلوب محزن لاريب وسئ فى ذاته، ولكنه أسوأ فى دلالته، لأنه يعنى فى أبسط تحليل اننا امام ما يضاعف ويعمق من بواعث الريبة وانها لم تعد تخفى على احد فى كل ما يخص أمور هذه الهيئة العامة وبشكل لا مجال للاجتهاد فيه.

لذلك يمكن اعتبار ان ردود الفعل على تهديد ووعيد رئيس الهيئة واعلانه الواضح والصريح عن اجراءات قانونية اتخذت ضد عدد من النواب الذين رأى فيهم بأنهم "خرجوا عن المهنية فى عملهم التشريعي ومارسوا ما يخل

بأخلاقيات من يمثل الشعب فى بيت الشعب "، هذه الردود يمكن القول إن معظمها صبّ باتجاه المراهنة بأن مركب هيئة التأمين الاجتماعى لا يسير حتى الان على خير ما يرام، وكل من سمع ومن قرأ ومن تابع ومن وصلته أصداء هذه الردود، وكذلك من استطاع أن يربط بين الكثير من الوقائع ذات الصلة بمسار هذه الهيئة والنتائج التى توصلت لها ليس فقط لجنة التحقيق البرلمانية التى تشكلت فى الفصل التشريعي الحالى، بل ومعها خلاصات لجان التحقيق الاخرى التى تشكلت فى الفصول التشريعية السابقة، سيخرج بخلاصة ان اللغط الذى أثير ولا يزال يثار حول الهيئة وملف التقاعد واوضاع المتقاعدين، وحقوقهم ومكتسباتهم التى بدأت تُمس، هو الملف الذى لا ينبغي التهوين من شأنه، وعليه يتوجب ان يفتح على مصراعيه بكل شفافية وجرأة حتى يمكن رصد التقيّحات التى تنتاب هذا الملف والتى هى حصاد مسلسل من الاختلالات تتراوح حلقاته بين ممارسات وسياسات وحسابات، وما هو تنفيذى واداري، وما يتصل بالشفافية وقواعد المسؤولية، و لا نعرف، ولا حتى النواب يعرفون اذا كانت التقّيحات والاختلالات هى كل "النار" ام بعضها فى هذا الملف الشائك.

لا بأس فى هذا السياق ان نستعيد بعضاً من ردود الفعل من واقع ما أثير فى العديد من مواقع التواصل الاجتماعى، عضو كتلة "تقدّم" النائب يوسف زينل شدد على أن ترهيب النواب أعضاء لجنة التحقيق سابقة خطيرة وترهيب صريح للنواب، ويمس جوهر العمل البرلماني، والتصدي لذلك واجب لمنع انحراف لمنع انحراف المسيرة النيابية، ووجدنا المحامي حسن اسماعيل عضو المنبر التقدمى الذى وجد فى تلك التهديدات إهانة لمجلس النواب وجريمة عملاً بحكم المادة 216 من قانون العقوبات التى نصت على ان "يعاقب بالحبس أو الغرامة من أهان بإحدى طرق العلانية المجلس الوطنى"، مشدداً على أحقية النواب فى نشر ما يرونه من تجاوزات وفساد فى اي من مؤسسات الدولة، وعدم جواز مؤاخذتهم عما يبدونه من آراء وأفكار.

ووجدنا من وجه الشكر لرئيس الهيئة على تصريحه بعدم اختفاء 900 مليون دينار من التأمينات داعياً إلى نشر المستندات الدالة لإقامة البيّنة على النائب الذى أشار الى اختفاء ذلك المبلغ، ووجدنا نواباً يغردون فى الفضاء الاليكتروني مثل النائب خالد بوعنق الذى قال "هل انقلبت الآية ؟، المضحك المبكي خروج مسؤول فى الجهاز التنفيذى يلوح بمحاسبة النواب المنتخبين والسبب كشفهم عن معلومات وحقائق، فيما ذهبت النائب كلثم الحايكى الى القول بان "من واجب النواب الإضاءة على أي خلل فى أي وزارة أو هيئة، ومن واجب النواب محاسبة المسؤولين عن أي هدر أو فساد، وتخلي النواب هو تخل عن واجباتهم الدستورية، وفى نفس كان ملاحظاً أن هناك نواب كثر صمتوا صمتاً مريباً وكأن الأمر لا يعنيهم لا من قريب ولا من بعيد.

صحيح أن لجنة التحقيق البرلمانية بشأن صناديق التقاعد التى تدار من الهيئة العامة للتأمين الاجتماعى، إلى جانب عدد من النواب، بالاضافة إلى كتلة "تقدّم" النيابية، جميعهم اصدروا تصريحات وبيانات لوحظ بأنه لم ينشر أي منها إلا فى بعض المواقع الإليكترونية، المهم فيما يخص بيان اللجنة هو تأكيد رفضها للاتهامات وقالت بأنها "لا تقوم بتضليل المواطنين وسوف تكشف عن الكثير من الحقائق المتعلقة بعمل الهيئة"، وإضافة إلى ذلك بيّنت انها لم تطرح اتهامات لأحد، وما قامت به أنها حاولت الكشف عن ما تقوم به من عمل واستفسارات كلجنة تحقيق برلمانية"، ولكن الغريب والمدهش حقاً، وما يشكل الطامة الكبرى هو موقف مجلس النواب، المجلس الموقر لم يصدر بياناً، او تصريحاً يعبر فيه عن موقفه الرافض للغة التهديد والوعيد التى وجهت ضد بعض أعضاء المجلس، موقف كان منتظراً حتى لا تمتد اللغة ذاتها لبقية الجهات الرسمية مما يهدد البقية الباقية من صلاحيات النواب لتبقى محصورة على الشكليات لا تتجاوز حدود الشكر والإشادة بمناسبة وبدون مناسبة والمقترحات البائسة.

فى الشق المتعلق بالخلاصات يمكن القول إن جميع المعنيين أمام امتحان، امتحان عسير، والخشية أن تكون النتيجة: لم ينجح أحد، وهذا يعنى أننا حتى الآن لا نعرف متى نغادر نقطة الصفر فى ملف يشكل واحد من اهم الملفات التى تهم الناس فى هذا البلد، وهذا فى حد ذاته نوع من العبث ..!.

ضرورة تحرير المرأة من صنوف الاستغلال

جواد المرخي

المرأة شريك الرجل في جميع المجالات المعيشية والحياتية، وكذلك في النضال الوطني والاجتماعي والحقوقي، كما تدّل على ذلك حركة تطور المجتمعات البشرية مروراً بالتشكيلات الاجتماعية المتعددة، ودور النساء في كل هذه التشكيلات جنباً إلى جنب مع الرجال.

إلا إن بعض القيم والتقاليد الموروثة منذ زمن التخلف تعمل على إطالة تحجيم دور المرأة، خصوصا في البلدان العربية التي تعمل فيها قوى مختلفة تستغل المرأة لصالح قوى الاستغلال الطبقي والاجتماعي والتسلط ليس على النساء فقط بل حتى على الرجال في العديد من المجالات.

نستطيع أن نقول بأن قوى الاستغلال الطبقي تتحالف مع القوى المذهبية والقومية والطائفية لتمزيق دور وعي المرأة، وإبعادها عن أطر وسبل الوعي التحرري في الجانبين الاجتماعي والسياسي، الذي يساهم في دفع عجلة النضال لتحقيق الأفضل في مجتمعاتنا العربية لتعيش كل المكونات حياة سعيدة تطبق فيها أسس العدالة الاجتماعية ويتحقق فيها مبدأ عدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

إن تطور الحياة علمياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، قد فندّ مزاعم من يعتقد بأن المرأة كائن ضعيف، وبأن النساء لا يستطعن القيام بأدوار الرجال، وإن قبلوها في مجال العمل والوظيفة فإنها تتقاضى أجراً أقل من الرجل، رغم أن المرأة حطمت الكثير من القيود بواسطة التعليم، فهي اليوم رئيسة، أو رئيسة حكومة في بعض الدول، ووزيرة للخارجية والداخلية والدفاع في بلدان اخرى وقيادية مناضلة في أحزاب سياسية في مختلف أرجاء العالم تخوض غمار العمل والنشاط جنباً إلى جنب مع رفيقها الرجل.

المرأة في المجتمعات العربية، خصوصا في الدول التي تعاني من الحروب والمآسي والانقسامات العرقية الطائفية مع هيمنة قوى الإسلام السياسي تعاني من صنوف التهميش وتترك لتكون غارقة في وحل التخلف والجوع والفقر والأمية، وعرضة للتلاعب بها من قبل القوى القبلية والعشائرية التي لا تعترف بمسألة أن المرأة لها حقوق.

لقد مرت علينا مناسبة الثامن من مارس يوم المرأة العالمي وهي ذكرى عظيمة لنضال المرأة على مستوى العالم، ولها جذور، حين قام أحد مصانع النسيج في الولايات المتحدة، في الخامس من مارس من عام 1908، بإغلاق أبواب المصنع على النساء العاملات اللاتي كن مضربات عن العمل مطالبات بتحسين أجورهن، وقد أشعل صاحب المصنع النار في المصنع مما أدى لوفاة كل العاملات و عددهن 129 عاملة.

وما هذه الذكرى إلا تخليدا لدور المرأة العاملة في مواجهة النظام الراسمالي العالمي، وحتى يومنا هذا فإن المرأة لا تزال تناضل بشجاعة خصوصا في وسط الأحزاب والقوى اليسارية والعمالية في العالم ضد صنوف الاستغلال الطبقي والاجتماعي، بفضل الوعي السياسي والفكري حيث كان للمرأة ولا يزال أدوار بطولية في ساحات النضال المختلفة.

تؤكد الماركسية على أن الرجل لا يمكن أن يتحرر من صنوف الاضطهاد إلا إذا عمل على تحرير النساء من براثن الجهل والاضطهاد السياسي والاجتماعي والطبقي، وكما قالت الراحلة الكبيرة الدكتورة نوال السعداوي بأن تخلف المرأة وتكبيلها لا يؤخر النساء فحسب بل انه يقود الى تخلف المجتمعات.

البحرين وصندوق النقد الدولي.. التوازن المالي أداة أم هدف؟

أموال الهيلوكوبتر الضارة بالدولة والمجتمع

عبد الجليل النعيمي

تحدثنا في أكثر من مناسبة أن من يحكم العالم الرأسمالي اليوم هي الرأسمالية المالية. ولم يعد سرا على أحد أنها تستخدم المؤسسات المالية الدولية، وفي مقدمتها صندوق النقد والبنك الدوليين، كأدوات فعالة من أجل إخضاع كل نظام الإدارة العالمي وكل إقليم ودولة وطنية فيه، وما يسري فيها من نماذج وسياسات اقتصادية–اجتماعية ونظام مصرفي وسلوك مجتمعي وتشريعات ونظم، كلها لخدمة مصالح طبقة الرأسماليين الماليين – حكام هذا العالم.

يسمي البعض فوز الرئيس بايدن بالمرحلة الثالثة من إدارة أوباما، ويعني هذا الفوز تثبيت الرأسمالية المالية سيطرتها وقيادتها للعالم الرأسمالي من جديد. وقرار إصدار 1.9 ترليون دولار كدفعة أولى من برنامج التيسير الكمي الذي سيغرق البلاد بكميات هائلة من أوراق الدولار التي لا غطاء لها في الواقع الاقتصادي المادي ما هو إلا مدخل قوي لبرامج الإدارة الجديدة. وبذلك يتحقق حلم السيد بن برنانكي، الرئيس السابق لمجلس الاحتياطي الفيدرالي بأن يصبح ممكناً نثر أوراق الدولار القليلة القيمة من على متن طائرة الهيلوكوبتر على الأفراد والشركات !!

المسافة بين البحرين وواشنطن حوالي 11 ألف كلم. فهل لطائرة هيلوكوبتر أن تقطع هذه المسافة من وراء المحيط الأطلسي؟ نعم، «هيلوكوبتر» بن برنانكي المالية – النقدية وصلت. نعني بذلك أن السياسة المالية النقدية المتبعة هناك تنعكس لدينا في كثير من جوانبها. كيف ؟

يجيب على هذا بشكل غير مباشر تقرير بعثة صندوق النقد الدولي (22 مارس 2021) بعد اختتام المجلس التنفيذي للصندوق مشاوراته مع مملكة البحرين (17 مارس) وفق المادة الرابعة من نظامه. ولنتناولْ ذلك ارتباطا بما جاء في تقارير أخرى في سياق تحليلنا التالي.

من نافل القول إن ميزانية الدولة لدينا لا تستند إلى خطة تنمية اقتصادية اجتماعية ثلاثية، خماسية أو عشرية. بل أن مبدأ التخطيط لا ينال الاعتراف، رغم أنه فرض دستوري. وإذا كنا قد سمعنا يوماً من بعض المسؤولين عن الإنتقال من ميزانيات البنود إلى ميزانيات البرامج (وقد صفقنا لذلك حينها)، إلا أنه سرعان ما طوى الصمت توجهاتٍ كهذه. الذي نشهده في السنوات الأخيرة هو أن وضع الميزانية يتمحور حول مسألة التوازن المالي، وحتى هذا الأخير ليس كأداة اقتصادية، بل كهدف بذاته. هذا النهج بكل ما جرَّه ويجرُّه من سياساتٍ خصخصةٍ وتوظيف للعمالة الأجنبية على حساب الوطنيةَ وضرائبَ غير مباشرةٍ وغير عادلةٍ ورفع للدعم عن المواد الغذائية والخدمات الضرورية للمواطنين وغلاء في الأسعار واستمرار ارتفاع سقف الدين العام وعبء خدمته خضع لنقد مرير من جانب كثيرين من المعنيين بالشأن الاقتصادي في بلادنا. بلا مواربة – هذه هي نتائج الأخذ «بالوصايا العشر» للمؤسسات المالية الدولية. لكن هذه المؤسسات لا تتوانى عن أن توجه نيران النقد للحكومات الوطنية عندما يقود هذا النهج الاقتصاد الوطني والبلاد إلى إخفاقات.

بداية يمتدح صندوق الدولي مملكة البحرين لأدائها الجيد في مكافحة جائحة كورونا، لكنه لا يمكن أن يُقِر، مباشرة أو إشارة، إلى أن هذا من فضل قوة الاستمرارية المتبقية من سياسة دولة الرعاية الاجتماعية التي عمل هو وغيره من مؤسسات شبيهة لتفكيكها.

لنبدأ من مشكلة المشاكل– الدين العام. بلغ مستوى الدين العام 133٪ من الناتج المحلي الإجمالي. ولتبيان خطورة هذا المؤشر نشير إلى أننا نقترب من المؤشر اللبناني البالغ 161.8٪ (تقرير فوربس، مارس 2021). وفي هذا الصدد «شدّد» التقرير على اتخاذ «تدابير دمج إضافية تتجاوز الميزانية الحالية لوضع الدين على مسار هبوطي ثابت وتقليل اعتماد الإيرادات المالية على أسعار المواد الهيدروكربونية». كما دعا مدراء الصندوق إلى «خطة تعديل مالي طموحة» على المدى المتوسط و»تعبئة الإيرادات المحلية وترشيد الإنفاق». طبعا، هذه عبارات عامة تجد محتواها الفعلي في ما يعرف بالوصايا العشر للصندوق والتي كرسنا لها مقالاً خاصاً في أحد أعداد «التقدمي». بعبارة أخرى في إطار النهج الاقتصادي الحالي ومع تكرار هذه الحلول نرى سقف الدين العام يرتفع مع كل عام. فهل استمرار الصبر على هكذا نهج سيأتي أُكلَه يوما ؟

في هذا الصدد يتساءل واضعوا تقرير معهد التمويل الدولي (IIF) عن الطريقة التي سيقلص بها الاقتصاد العالمي هذا الحجم الهائل من المديونية دونما آثار متعبة على النشاط الاقتصادي؟ ويشير الخبراء الاقتصاديون إلى أن الدين العالمي ظلّ لسنوات طوال يتزايد على حساب الإصدار النقدي وتوزيع القروض الرخيصة على الأفراد والمؤسسات. وهكذا فقط يتم تحفيز الاقتصاد عاما بعد عام. لكن أرتيوم دييف، رئيس دائرة التحليل في «إيه ماركتس» الروسية يرى أنه «عاجلا أم آجلا سيؤدي هذا إلى دورة جديدة من العجوزات وإلى انهيار مالي عالمي جديد». وأنه «لا أحد يعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك. الواضح فقط هو أن الدول لن تستطيع سداد ديونها الهائلة».

وهنا فارق كبير بين عجز الدول المتقدمة اقتصاديا والدول النامية عن سداد الديون. الديون العالمية مقومة بالدولار الأميركي أساسا وبالعملات الريادية الأخرى كاليورو والفرنك السويسري والين والجنيه الاسترليني. الولايات المتحدة، مثلا، يمكن أن تنتظر تزايد الفقاعات المالية حتى انهيار هرمها المالي، ومعه العالمي. غير أن سيادتها ليست مهددة من أحد في كل الأحوال. الصين – الدولة الاشتراكية، هي الأخرى سارت في طريق التيسير الكمي. لكن بهدف واضح، وهو تشجيع الشركات على الاقتراض للحصول على المزيد من التكنولوجيات المتقدمة. غير أن خطة التنمية الاقتصادية الاجتماعية 14 الجديدة تنظر إلى ظاهرة تعاظم الدين العام بقلق بالغ (رغم أنه بالعملة الوطنية في الأساس)، وستعمل على «تبريد» الدين ثم تصفيره سريعا. بالنسبة للدول النامية، وخصوصا الفقيرة الأمر يختلف. لن يطلب منك أحد سداد الديون، لأنك ببساطة لن تستطيع، كما أن ما بقي لديك من مال لم تعد له قيمة تذكر، خصوصا إذا لم تكن محصنا باحتياطات الذهب. هنا، إفلاس الدولة يؤدي ليس فقط إلى فقدان السيادة، بل ويهدد مفهوم الدولة الوطنية لصالح دمجها في النظام العالمي الجديد، الذي يدور عنه الحديث الآن كما في الخيال. الشركات الكبرى (بعد عمليات دمج هائلة فيما بينها) هي التي ستسيطر مباشرة على «الأراضي» ومن عليها (مجرد أجراء) وما في جوفها (ملكية خاصة). اللهم اجعله مجرد حلم مزعج. البلدان الأوفر حظا للإفلات من هذا المصير هي الأقل غرقا في الديون.

هذا على المستوى البعيد. أما على المستوى القريب والمتوسط فهناك مؤشرات مقلقة حقا. يشير تقرير الصندوق إلى أن الاحتياطات الدولية انخفضت، بحيث لم تعد تغطي أكثر من 1.4 شهر من الواردات غير النفطية المحتملة. للمقارنة نشير هنا إلى أن معدل الأمان العالمي هو خمسة أشهر. ويتوقع تقرير المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات أن يصل احتياطي البحرين من العملات الأجنبية 2.4 مليار عام 2020 مقابل 2.3 مليار دينار عام 2019. وفي حين تلجأ غالبية دول العالم، مع تفاقم الأزمة العالمية، إلى زيادة المكون الذهبي في احتياطاتها النقدية الذهبية، باعتبارها أكثر أمانا وارتفاعا مستمرا في قيمتها، إلا أن احتياطات البحرين من الذهب ظلت بمقدار 4.7 طن فقط حسب تقديرات مجلس الذهب العالمي لعام 2020، كما كانت عليه عام 2015. ولتبيان ضآلته يشكل هذا الاحتياطي حوالي 0.34٪ فقط من مجمل احتياطي الذهب للدول العربية. احتياطي نقدي – ذهبي بهذا

القدر والتكوين يشكل خطراً على سعر صرف العملة المحلية الذي سجلّ تراجعا بمقدار –3.4٪ عام 2020.

يشير التقرير إلى اتسام الاقتصاد بالإنكماش عموما بنسبة –5.4٪، والانكماش حاد في القطاع غير النفطي (–7٪)، ما أدى إلى ارتفاع العجز المالي إلى 18.2٪ واتساع عجز الحساب الجاري إلى 9.6٪ من إجمالي الناتج المحلي لعام 2020. ومهما كانت توقعات تحسن مؤشرات النمو، إلا أن مستقبل النفط في ميزان وسوق الطاقة العالميين سيظل معرضاً للضغوط.

وفي حين ذكر التقرير أن البنوك ظلت تتمتع برؤوس أموال وسيولة جيدة، إلا أنه حث السلطات «على الحفاظ على تحليل استشرافي لمحافظ الائتمان المصرفية ومستويات المخصصات وإدارة الروابط بين البنوك السيادية بعناية.“ لا نعرف تماما ما الذي تمّ وضع الإصبع عليه في الإشارة الأخيرة، لكن تجارب بلدان أخرى تسجل محاولة المصارف استغلال نفوذها لتوريط المصرف المركزي في معالجة الفشل، غالباً عن طريق الإصدار النقدي. نرجو أن لا يكون الأمر كذلك.

عوداً إلى بدء المقال، حيث قلنا إن السياسة المالية النقدية تنعكس عندنا بجوانبها السلبية. ترى ما الإيجابي الذي لا ينعكس لدينا ؟

تقول بلومبيرغ إن الرئيس بايدن يخطط لأول زيادة كبرى في الضرائب منذ 28 سنة (منذ عام 1993). وينطلق في ذلك من اعتقاده بأن الأميركيين بحاجة إلى سياسة ضريبية أكثر تقدمية، وتركز على مكافحة عدم المساواة. ولتمويل البرامج الاقتصادية ما بعد حزمة الدعم الثالثة (1.9 ترليون دولار) ستتم زيادة الضرائب على الشركات الكبيرة من 21 إلى 28٪، بينما ستقدم الحوافز للشركات الصغيرة والمتوسطة. وستزيد الضرائب على دخل الأفراد الذين يزيد دخلهم عن 400 ألف دولار سنويا (12.6 ألف د.ب شهريا). وتجري دراسة فرض ضريبة أكبر على نمو رأس مال الناس الذين يحققون دخلا أكثر من مليون دولار سنويا. بتقدير Tax Policy Center ستدر الزيادة الضريبية على الميزانية حوالي2.1 ترليون دولار. ويمكن بسهولة ملاحظة أن هذه السياسة الضريبية، مباشرة أولا، ولا تمس الفئات الدنيا ولا الشركات الصغيرة والمتوسطة بسوء. الضرائب لدينا معكوسة : غير مباشرة، وتستهدف الأضعف أولا !!

سندع جانباً حزم الدعم عن طريق أموال الهيلوكوبتر، والتي تعد كل مواطن بمبلغ 1400 دولار ومزايا إضافية للأطفال وتمديد إعانات البطالة وفئات معينة، ويقول عنها الخبراء أنها قبل نهاية السنة المالية الحالية (1 أكتوبر 2021) يجب أن تزيد دخل هؤلاء بنسبة 20٪. إنها أموال ستتأتى عن طريق مزيد من الإصدار النقدي ومزيد من الدين العام. ولذلك فهي مُعابَة من قِبَل العديد من الاقتصاديين.

في مقابل ذلك، وهذا ما ندعو للأخذ به، أنه حتى في أميركا نفسها لا يزال يسري برنامج المساعدة الغذائية (Supplemental Nutrition Assistance Program) منذ عقود. ويسمى أيضا كوبونات الغذاء (food stamps)). وفي العام الأخير فقط زاد عدد الذين يستخدمون الكوبونات من 36 مليونا إلى 44 مليونا. ولا تزال في الكويت تمنح البطاقات التموينية للمواطنين، كما في بلدان كثيرة في العالم. هذا الدعم هو أضمن من حيث ذهابه لأهدافه مباشرة. كما أنه أقل كلفة من أموال الهيلوكوبتر الهائلة. إذ كلما زاد عرض النقود ارتفعت الأسعار الإسمية، ما يسمح بإعادة تدوير قسم كبير من الأموال لصالح التجار وشركاتهم الكبيرة.

ومهما أثار هذا عدم ارتياح البعض، إلا أننا لسنا مع تعميم الدعم (سواء من جهة «تمكين» أو وزارة العمل) لجميع الشركات صغيرها وكبيرها بنفس المبدأ، إذ سيعني ذلك عمليا، وكما هو حاصل، ذهاب الدعم في غالبه لكبار الشركات، وتمكيناً لها ضد الشركات الصغيرة والمتوسطة، بالضد من فكرة تمكين الأصل التي يجب أن تعني مساهمة الشركات الكبيرة في دعم الصغيرة والمتوسطة. فلا عجب أن نشهد تدهور أعداد كبيرة من هذه الأخيرة في مقابل، مثلا، أن تستولي شركة عائلية واحدة على مختلف مجالات الأعمال، من المصارف إلى وكالات السيارات إلى خدمات الأمن والمكاتب وحتى جمع القمامة !! إن دعماً على هذه الشاكلة لا يعتبر انحيازاً طبقياً لصالح الأغنى فقط، بل وإجهاداً للدولة والمال العام، وسيكون في نهاية المطاف على حساب زيادة الدين العام، في حين تطرح هذه الشركات في السوق إنتاجاً مستوراداً في الغالب، وتوظف في الغالب عمالة أجنبية تحوّل الأموال للخارج وتضغط على قطاعات الخدمات في الداخل.

صندوق النقد أكدّ، كما في كل مرة، على مزيد من سياسة التقشف وتمكين القطاع الخاص للعب الدور القيادي في الاقتصاد. وفي هذا لبُّ ”الإصلاح الاقتصادي“ من وجهة نظره، على أن تكون الدولة مجرد ”حارس أمين“ لتحقيق هذه التحولات. في مقابل ذلك نقول إن إجراءات ما، مضادة للأزمة مطلوبة بالفعل، كالتي مررنا على ذكر بعضها، لكنها، متناثرة، لا تشكل برنامجاً متكاملاً لخروج اقتصادنا ومجتمعنا من الأزمة الحالية. هذا البرنامج يكمن ببساطة في تغيير النموذج الاقتصادي بشكل جذري، إلى نموذج يخلق اقتصاداً فعلياً، منتجاً، مترابط ومتكامل الأوصال، قادراً على إحداث التراكم الداخلي والتكاثر الذاتي، معبئ لجميع الموارد الداخلية من مادية ومالية وبشرية من أجل التنمية الداخلية. وإيجاد مثل هذا النموذج يحتاج إلى الإيمان بمبدأ أن تلبية حاجات تطور المجتمع وتعزيز دور وقدرات الدولة الوطنية أهم بكثير من تكثير أرباح الشركات، ولو بالمال الفقاعي. وبالطبع هذا بحاجة إلى كوادر بشرية مؤمنة بهذا المبدأ، وليست مبهورة بنموذج وطريقة عيش البلدان التي لم تعد متقدمة، بقدر ما هي متأزمة ليس اقتصاديا فحسب، بل وقيمياً وحضارياً.

قاسم الحلال

درس انتفاضة مارس ١٩٦٥

جاءت اننتفاضة مارس 1965 المجيدة، لتسطر موقفاً بطولياً خاضته جموع أبناء شعبنا، حيث قادتها التنظيمات الوطنية بكل قواها اليسارية والقومية، كما كانت الانتفاضة درساً لمسار الحراك الوطني، فهي جاءت كضرورة، حين هبّ الشعب، وخصوصاً الطبقة العاملة، التي تعاني من جشع الشركات الأجنبية واستغلالها، من خلال الإنتفاضة التي رفعت مطالبها، وأهم رفعته الانتفاضة لا زال قائماً بعد تهميش وتجاهل النقابات العمالية، كما تعرض الكثير من الكوادر النقابية للفصل التعسفي أو التطفيش.

الحراك العمالي اليوم يعاني من تعسف بعد أن أنتعش نوع ما في مرحلة سابقة، مما يدفعنا للتأكيد على كون الطبقة العاملة في اضطهاد مستمر، وخصوصاً المرأة العاملة التي ترزح تحت خط الفقر أكثر من الرجل الذي يعاني، هو الآخر، من اضطهاد، حيث تدني مستوى المعيشة وتعطيل الراتب الذي يجعل من الأسر في معاناة، وفوق هذا تزداد الضرائب ونسبة البطالة.

في هذه المناسبة نستذكر استمرار مطالبة المنبرالتقدمي من خلال كتلته النيابية، على أن أي إجراءات تتخذ سواء كانت اجراءات اقتصادية أو سواها، يجب أن تخضع مسبقاً لحوارات ومناقشات عن طريق المجلس النيابي، خصوصاً إذا كانت تتعلق بمعيشة المواطن.

إن استمرار تهميش نقابات العمال، ينعكس على الوضع التنموي، وهناك حاجة لإجراء تعديلات تشريعية ضرورية لمصلحة الطبقة العاملة، خاصة مع فتح الأبواب على مصاريعها أمام العمالة الأجنبية، وهناك حاجة أيضاً لتفعيل دور الهيئات الرقابية وتوسيع صلاحياتها لتؤدي الدور المطلوب منها.

واقع التعليم عن بعد في البحرين *

بلمحة سريعة على مكونات مدرسة المستقبل، والمراحل التأسيسيّة للمشروع، الذي تم تطبيقه الشامل عام ٢٠٠٨، والذي استمر حتى اليوم، فأصبح عمره ستة عشر عامًا، وخلالها حسب الخطة المعدّة له، نشر في جميع مدارس البحرين، ولجميع المراحل، وعلى جميع المستويات والأصعدة، أفقيًا وعموديًا، بدءًا بالمستوى الإداري التنظيمي، إلى المستوى الفني التقني، إلى المستوى الاتصالي التواصلي، فالمستوى التعليمي التعلمي ثم المستوى التنموى المهني، وأخيرًا المستوى التقييمي التقويمي، كما جاء في أدبيات وزارة التربية والتعليم. وبالاضطلاع إلى تصريحات وزير التربية والتعليم، في الاجتماع الاستثنائي للمؤتمر العام لوزراء التربية والتعليم لدول مجلس التعاون الخليجي، والذي عُقد باستخدام تقنية الاتصال المرئي عن بُعد في ١٠ يونيو ٢٠٢٠، استعرض الوزير فيه تجربة مملكة البحرين في تفعيل التعلم عن بُعد.

من خلال البحث في البوابة الإلكترونية لوزارة التربيةٍ والتعليم، والتحقق وبالبحث في موقع الوزارة، نجده مخططًا واضحًا ومتسلسلا؛ لكن هناك الكثير، من وجود عناوين رئيسية جميلة خالية من أي محتوى، ونرى أنّ مقدار جذب الطالب لتلك البوابة التعليميّة ضعيف جدًا، مقابل الكم الهائل الذي يقدمه google من طرق تعلم واسعة ومنوعة وسهلة الاستخدام، ربما تربك التلميذ وولي الأمر في ذلك.

من خلال استطلاع أوليّ قامت به الباحثة، وقدّمته في ندوة الاتحاد العام لنقابات عمال البحرين، بتاريخ 21 يوليو، كانت النتائج:

«رب ضارة نافعة» أزمة جائحة كرونا، أوضحت ما هو مخفي من إيجابيات لتعزيزها، وسلبيات، لمعالجتها، فعمر مشروع مدارس المستقبل حتى اليوم، ستة عشرة سنة، يفترض أن يكون الجميع مؤهل... وهنا التساؤل؟؟؟؟ أين المراقبين على القائمين على المشروع.

عدم وجود وضوح رؤية في القطاع العام، والدليل تغير القوانين والارشادات الموجهة للمدارس الحكومية أكثر من مرة، فما هو ممنوع، يصبح بين ليلة وضحاها مطلوب بل ويكافأ عليه.

عدم متابعة لحضور حصص التعلم عن بعد؛ لقصور في البرنامج الذي يقدّم من خلاله الدروس، وبالتالي كيف يمكن قياس عملية التعلم، خاصة لتلاميذ المرحلة الابتدائية والإعدادية؟

التقويمات والنتائج التي تحصّل عليها الطلبة في التعليم العام، أغلبها غير صحيحة ولا تعطي القيمة الفعلية لمستواهم الأكاديمي، خاصة للمرحلة الابتدائية والاعدادية، فالنتائج كما عبّرت عنها فكاهيات الرسوم المتحركة والطرائف التي نشرت وقتها عبر التواصل الاجتماعي، ما هي إلا نتائج الأمهات. وهي جهد أولياء الأمور، حيث كانت إجابات الامتحانات جماعية، فكيف يكون مقياس النجاح للفرد.

طلبة التعليم الخاص، لم يعانوا من التعلّم عن بعد، مقارنة بطلبة التعليم العام؛ والسبب تعودهم على التفاعل

د. غنية عليوي

معه قبل الجائحة.

وجود النتائج المرتفعة لبعض التلاميذ بشكل عام، أراح نفسية أولياء الأمور، وأوهم البعض نفسه بأن الانجاز الذي تم، قد تم بجهود الأبناء.

إذا كانت الرغبة بتعليم جاد وحقيقي، فلا بد من الاعتماد على الكفاءات العلمية الوطنية فقط.

يمكن أن نوجز ذلك في أنّ التخبط الذي حدث للعملية التعليميّة برمتها خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي 2019 – 2020، كان راجعًا لعدم الاستعداد، فضلا عن أن ما يُنعَت به مشروع مدارس المستقبل لم يكن بتلك الصورة المنمقة والجميلة، التي صرف عليها آلاف الدنانير على مدى ستة عشرة سنة؛ لتهيئة المؤسسات التعليميّة البحرينية، والغريب أنها أتت بصورة هزيلة، تنم عن عدم المتابعة وإهدار المال العام فيها، كما أنّ هناك أسبابًا عديدة لسنا بصددها الآن.... لقد كشفت جائحة كرونا المستور.

كان أمام القائمين على التعليم وقتًا يستطيعون خلاله تدبر الأمر، حيث كانت عطلة الصيف الطويلة أمامهم، ويمكنهم تقييم ما مروا به لتلافي كثير من الاشكاليات، التي وقعوا فيها. ولتلمس الواقع عن قرب، والتعرف على التهيئة للعام الدراسي 2020 – 2021، وجب النزول للواقع الميداني مرة أخرى، وعمل مسوحات أوليّة للعاملين في الميدان التعليمي ولآراء المستفيدين من طلبة وأولياء أمور، لقد جاءت العينة مقصودة شملت عموديًا وأفقيًا من لهم علاقة بالعملية التعليميّة، وجاءت النتائج كالتالي:

لا زالت الضبابية وعدم وضوح الرؤيا في مدارس التعليم العام موجودة، ووجود التخبط منذ بداية اقرار استمرار التعلم وعدم توقفه للفصل الدراسي الأول 2020 – 2021.

بطء الإنترنت يشكل عائق كبير في عملية التعلم عن بعد خاصة للتعليم العام، وعدم وجود التفاعل بين الطالب ومعلمه عائق آخر، ... فلابد من تقوية شبكة الإنترنت من قبل وزارة التربية والتعليم، والحضور للدروس إجباريًا – تسجيل الحضور.

إرهاق ميزانية المعلمين من الصرف على توظيف الإنترنت الخاص بهم في خدمة الطلبة؛ لضعف خطوط المدارس الإلكترونية، وكذلك في مستلزمات الرعاية الأولية كوجود المهرات والكمامات... إلخ

الدورات التدريبية والورش التي قدّمت للمعلّمين لم تكن كافية، كما أنّها ليست بالمستوى المطلوب كما ونوعا وكان على المعلم أن يتعلم ذاتيا بشكل أكبر، كما أن متابعة المشروع من جهة صيانة السبورة الذكية تسير ببطء.

على الرغم من ترتيب الوزارة بجعل معلم يلقي ويشرح، وآخر معاون له سيستقبل الأسئلة؛ إلا أن تساؤلات الطلبة وعدم قدرتهم على التواصل المباشر مع المعلم الأساسي بشكل فاعل، خصوصًا أن المعلم المعاون لا يستطيع الرد على استفسارات والتفاعل مع العدد الكبير من الطلبة أثناء البث.

عملية التعلّم لم تأخذ أحقيتها من مختلف الجوانب، حتى وإن كانت اكتملت من الجانب المعرفي؛ إلا أنها كانت قاصرة بل ومفقودة من حيث الكفايات الأخرى المهارية والسلوكية والاجتماعية... إلخ

إن عملية التدريب على استخدام التكنولوجيا والبوابة التعليمية والسبورة الذكية والسبورة التفاعلية والأدوات

الرقمية عملية مستمرة لجميع المعلمين والمعلمات كانت جيدة. ويبقى السؤال الذي يلح عليهم، كيفية التطبيق.

التقدم المحرز من تدريب ذاتي وتعلم برامج إلكترونية من قبل المعلمين والطلبة أنفسهم التي تستخدم عن بعد، كانت في فترة وجيزة جدًا، إذن أين منها القائمين على مدارس المستقبل.

ترك خيار حضور الطلبة للمدرسة لأولياء الأمور، أدخل أغلبية أولياء الأمور في حيرة، فبعضهم غير مؤهل على اتخاذ القرار الصحيح.

ليس كل أولياء الأمور على درجة من المعرفة العلميّة التي تمكنهم من تعليم أبنائهم وسد الحاجات المعرفية لديهم. كما أنّ أولياء أمور آخرين يعملون – الأم والأب – وهذا سبب سيسبب إشكالا عليهم...

عدم انتباه بعض التلاميذ، الذين لا يهتم أولياء أمورهم بمتابعة دروسهم عبر الوسائل الإعلامية والتكنولوجية لأميتهم التكنولوجية في استخدام الأجهزة الإلكترونية المتمثلة في الحواسيب أو الهواتف الذكية بخلاف التلفاز أو الإذاعة.

عدم جدية بعض الطلبة في متابعة محتوى الدروس والمواد الدراسية التي تقدّم عبر المنصات التعليميّة، وتراخي البعض عن المشاركة عن طريق التعليم عن بعد. وعدم وجود التفاعل الإيجابي في طلب إعادة ما لا يفهم لأن لمحدودية الوقت للتعلّم إلكترونيًا في التعليم عن بعد.

انقطاع الشبكة الإلكترونية لبعض الأجهزة أو عدم وصولها أو انقطاع الكهرباء أو فقد الاتصال أو عدم الوضوح للصوت أو الصورة مما يشوش على العملية التعليمية. بشكل عام

عدم توفر الأجواء الدراسية للبعض داخل المنازل والتي تشغل البعض أمورًا أخرى مشاغبة ومشوشة على انتباه التلاميذ لدروسهم التعليمية، بسبب ضيق المكان، أو وجود أكثر من تلميذ في مراحل مختلقة.

التعليم عن بعد يركز على التعليم دون التربية في ظل الأزمة والتي قد تعوض فقط في ظل الإطار الأسري حيث كانت المؤسسة التعليمة مساهمة في العملية التربوية للطالب مع المؤسسة الأسرية والمجتمعية.

عدم توفر الأجهزة المطلوبة للتعليم عن بعد سواء كانت الأجهزة الإلكترونية أو الشبكة الإلكترونية أو الأجهزة التلفزيونية للأسر الفقيرة في حال لديها أكثر من طالب في مراحل مختلفة.

صعوبة على المعلم في إعطاء مادة التعليم عن بعد دون تفاعل الطلبة معه – يستغرق عمل المعلم إلى ست ساعات متواصلة – ما يؤدي إلى إجهاد مستنزف من المعلم للطالب ولا تفاعل من قبل الطرف الآخر، والذي يرجعنا إلى أسلوب التلقين بدلاً عن أسلوب التفاعل الإيجابي.

التأثير على الجانب الصحي للطلبة من كثرة استخدام الأجهزة الإلكترونية بدافع التعليم والتثقيف والترفيه، حيث أصبح الطالب يقضي وقته وحياته داخل هذه الأجهزة ومع هذه الوسائل دون أن يغفل عنها لحظة. أصبحت عبئاً مالياً يتحمله الأهالي ذوي الدخل المحدود لتوفير أجهزة إلكترونية للمنظومة الإعلامية بدل الكراسات والأوراق والأقلام.

التأثير على الجانب الغذائي على الطالب والذي يجعل حياته مقيدة بالجلوس أمام شاشة تلفاز أو كمبيوتر أو متابع عبر الأجهزة الذكية بمختلف البرامج والتطبيقات التي يحملها، واستمرار لتناوله الوجبات الخفيفة والغير صحية.

القضاء على المواد الدراسيّة المهارية مثل التربية الرياضية والموسيقى وغيرها من المهارات مما ينقل الطالب لأن يكون نظرياً فقط دون أن يستخدم المهارات الحركية.

بدأ التعليم في بعض المدارس الخاصة، بحضور الطلبة جميعهم، وفي كل الأيام المدرسية، مع اتخاذ مختلف الإجراءات اللازمة، بينما مدارس أخرى رتبت بحضور الطلبة ووزعتهم على فترتين وقللت من زمن اليوم المدرسي، كما طبقت برامج يكون فيها الطالب متفاعلا مع المعلم، ومرتبطًا به... المدارس الحكومية لا زالت الصورة غائمة عند المعلمين فكيف واقعها عند أولياء الأمور.

أغلب الجامعات الخاصة استغلت جائحة كورونا من أجل التملص من القيام بدورها، وأصبحت الشهادات للبيع، مقابل ذلك لا إجراءات من مجلس التعليم العالي حيال ذلك، بل محاولاته بفرض درجات 20 درجة للاختبارات النهائية و80 درجة على الواجبات والانشطة الشكلية التي تعطى للطالب وإعطاء الطلبة يومين أو أكثر لحل الامتحان، يمكنهم ذلك أخذ الأسئلة للمكاتب أو لأفراد للإجابة عنهم، وتبريرهم في ذلك مساعدة الطلبة ونفسياتهم في ظل الجائحة... إنّ ما يحدث جريمة في التعليم الجامعي.

أصبح ما يقدم عبر التعليم عن بعد هو مجرد محاضرات صوتية ومتابعة الطلبة لها غير ذات أهمية، باعتبار أن المحاضرة تسجلت ويمكنهم الرجوع لها في أي وقت، وليس على الأستاذ أن يتأكد من تفاعل ومشاركة هذا الطالب أو غيره من دون أن يعرف له شكلا أو هيئة.

زادت اللامبالاة للطلبة ناحية التعلم، بالسماح لهم بالإجابة عن الاختبارات والسماح لهم بتسليمها بعد يومين أو ثلاثة وحتى أسبوع، فالنجاح مضمون حتى وإن لم يجهد الطالب نفسه.

مدى جاهزية البحرين للتعليم عن بعد، خاصة لأطفال العائلات غير المقتدرة

معظم المدارس الحكومية تم جرد أعداد التلاميذ المحتاجين إلى الحاسوب، ولا يستطيعون توفيره في المنزل؛ لمتابعة الدروس عن بعد – من المنزل، خطابات عدّة رفعت، ولم ترد عليهم الوزراة، بل رفعت الموضوع إلى حملة «فينا خير» (مثال على ذلك، إحدى المدارس وصل عدد التلاميذ المحتاجين = 250 تلميذ، ورفع الموضوع إلى وزارة التربية والتعليم، ورفعت خطابات عدّة إلى وزارة التربية، طالبين إمدادهم بحواسيب إلكترونية للمحتاجين من التلاميذ وتقوية شبكة الانترنت الضعيفة في المدرسة، لكن دون رد)، وأخيرًا حملة «فينا خير» زودت المدرسة بعدد من الحواسيب للمحتاجين جاءت بأسماء مرصودة على دفعتين، الدفعة الأولى 30 حاسوب باسم 30 تلميذ، والثانية 25 حاسوب باسم 25 تلميذ، وجاءت بعضها بأسماء تلاميذ لم تكن محتاجة، وعندما استلم اللاميذ الغير محاجين للحاسيب رجعوها؛ لعدم حاجتهم إليها، لتسليمه لمن يحتاجها من التلاميذ، وحسب قول المعلم المسؤول لا نعرف معيار اختيارهم، واعتمادهم في التوزيع. وقس على ذلك بقية المدارس.

أعداد ليست بالقليلة لا يملكون إلا حاسوبا واحدًا في البيت ولجميع الأطفال، وإمكانيات إنزال برامج عليه غير ممكنة لضعف شبكة الانترنت لديهم، فلا يستطيعون متابعة الدروس، وهنا حلت اشكالية اجراء الامتحانات، التي لا زالت متعطلة لبعض التلاميذ حتى وقت كتابة هذه الورقة، ولا زال المعلمون يعانون من كيفية التقييم لهم عن بعد، وهم لا يمتلكون حاسوبًا وإن وجد لا يوجد خط النت الذي يعتمد عليه.

شبكة النت في المدارس ضعيفة جدًا، لايمكن الاعتماد عليها، وأغلب المعلمين يستخد النت الخاص به، وعند مخاطبة إدارة المدرسة يكون الرد هذا هو الموجود؛ مما يضطر المعلمون لاستخدام خطوطهم الخاصة وبدون تعويض.

عدم توفر الأدوات الاحترازية اللازمة في المدرسة من كمامات وخلافه، مما يدفع المعلمين من توفير مختلف ما يحتاجونه من مواد وأدوات احترازية ضد فيروس كوفيد – 19.

يلتحق الأطفال بالمرحلة الآبتدائية بعد اكتمال الطفل سن السادسة، وجرت العادة على أنّ جميع الأطفال قد التحقوا برياض الأطفال والتي جميعها خاصة، إذ يتوجب على أولياء الأمور الدفع في الكورس الواحد للطفل، للرياض المتوسطة المستوى، مبلغ لا يقل عن 500 دينار للفصل الواحد، وإلا يضيع الطفل بين أقرانه ممن كان لهم الحظ في دخول الروضة والوصول إلى مستوى تعليمي معين من تهجي الكلمة ومعرفة الأعداد.

---

* ملخص ورقة قدمت في «ملتقى التقدمي» الأسبوعي بتاريخ ٢٤ يناير ٢٠٢١

التعليم عن بُعد .. المشكلات والآفاق *

مع تنامي وتيرة التغيرات المستمرة والدراماتيكية التي يشهدها العالم، خصوصًا بعد جائحة كورونا (كوفيد ـ19)، أصبح تحديد المهارات المطلوبة للمتعلم أمرًا أساسًا، بُغية الوصول إلى فردٍ قادرٍ على التعامل مع متطلبات المراحل اللاحقة لتخرجه من المدرسة؛ سواءً كانت متعلقة بمتابعة تعليمه العالي أم الانخراط في سوق العمل.

د.فاضل حبيب

ولقد ركزّ الإطار الرابع لمراجعة أداء المدارس الحكومية والخاصة الصادر في فبراير 2019 عن هيئة جودة التعليم والتدريب في مملكة البحرين على تطوير المخرجات التعليمية من خلال الاستناد إلى مهارات القرن الواحد والعشرين والتي تعدُّ منطلقًا لمجالات الإطار ومعاييره، بحيث تفرز العملية التعليمية أفرادًا متمكنين من المهارات الأكاديمية والحياتية الداعمة، وقادرين على التأقلم والمنافسة ومواجهة التحديات. هذا، وتهدف هذه المهارات إلى توحيد الرؤية واللغة فيما يرتبط بالمتوقع من الطلبة عند استكمالهم المراحل التعليمية المختلفة، كما تلعب دورًا مهمًا في تقليص الفجوة بين مخرجات التعليم، ومتطلبات سوق العمل.

لا بأس من الإشارة ـ ولو بشكل سريع ـ إلى المقصود بمهارات القرن الحادي والعشرين والتي يتمحور حولها إطار مراجعة أداء المدارس الحكومية والخاصة بمملكة البحرين، وهي على النحو الآتي:

1ـ مهارة التفكير الناقد.
2ـ مهارة التواصل والعمل الجماعي.
3ـ مهارة الإبداع وحلّ المشكلات.
4ـ مهارة القيادة وصنع القرار.
5ـ مهارة المواطنة المحلية والعالمية.
6ـ مهارة الريادة والمبادرة.
7ـ مهارة التمكن اللغوي.
8ـ مهارة الثقافة التكنولوجية: أي قدرة الطلبة على استخدام التكنولوجيا وأدواتها بفاعلية؛ لصناعة المعلومات أو الوصول إليها، وإدارتها، وتفنيدها ونقدها، ونشرها، مع الدراية التامة بأثر المحتويات التكنولوجية على الفرد والمجتمع.

مثالٌ على ذلك: عندما يوظف الطلبةُ وسائل التواصل الاجتماعي في العملية التربوية والتعليمية.

بطبيعة الحال، ليس الهدف من استخدام التكنولوجيا في التعليم زيادة تحصيل الطلبة للمعلومات، وإنما زيادة قدرتهم وتمكنهم من استخدام المعلومات بأقل جهد وفي أقل وقت وأكثر متعة، فمسألة رقمنة التعليم في المدارس والجامعات تتطلب حتمية تمكين المعلم والمتعلم في بيئة تعلم ذكية.

«كورونا» والتعليم عن بعد

فمع بداية جائحة كورونا (كوفيد ـ19)، أصبحت الثقافة التكنولوجية ضرورة حتمية لا يمكن تجاهلها بالنسبة للمعلمين والمتعلمين وأولياء الأمور على حد سواء، كما أصبح التعلم عن بُعد هو الخيار الأسلم والأمثل نتيجة الظروف الصحية الراهنة، فلا توجد صفوف دراسية وإنما وسائل وتطبيقات التواصل الاجتماعي، كما حلّ البيت مكان المدرسة، وأصبح أولياء الأمور بشكل أو بآخر شركاء إلى حد كبير مع المعلمين في العملية التعليمية التعلمية، مع تحفظنا على (بعض) الممارسات التي جعلت منهم متعلمين ويحلون الواجبات والتطبيقات بدلًا من أبنائهم، مما يستدعي التدخل بوضع أنظمة تقييم وتقويم صارمة تقيس بدقة أداء الطالب نفسه وليس ولي أمره أو أي شخص آخر ينتحل شخصية المتعلم.

(البعض) ولا ونقول الكل، تطرف وذهب بعيدًا جدًا إلى حد المطالبة بإلغاء التعليم الحضوري إلى المدرسة حتى في مرحلة ما بعد كورونا، بحجة أن التعلم عن بُعد يفي بالغرض.

أصحاب هذه الدعاوى (الذين يطالبون بإلغاء التعليم الحضوري وحصره في التعلم عن بُعد) يقولون بأنه تم سقوط تابوهات التعليم: ويعنون بذلك الثالوث (المدرسة والمعلم والامتحانات) لصالح التعلم عن بُعد!

إلا إننا نؤكد على أهمية التعليم المدرسي الانتظامي (عن قُرب)، خصوصًا مع طلبة التعليم الأساسي (المرحلة الابتدائية)؛ لأن مهمة التعليم ليست فقط إدخال الطلبة في عالم المعلومات والمعرفة وتدريبهم على بعض المهارات المطلوبة في سوق العمل ـ كما يقول المفكر د.علي فخرو ـ وإنما المطلوب أكثر من ذلك بكثير، فالمدرسة يجب أن تكون أداةَ تغيير وتجديد ثقافي وشحذ وبناء التزامات وطنية وقومية وإنسانيّة. وهذا لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال عمليتي تفاعل إبداعي بين الطالب وزملائه، وبين الطالب ومعلمه، فالمعلم لا يستطيع أن يقوم بتلك المهمات من خلال التواصل الإلكتروني، وإنما في الأساس من خلال التفاعل الخلاق في الصف مع تلاميذه.

دعونا نتناول المشكلات التي تواجه التعلم عن بُعد بمقاربة حقوقية منصفة، ولنبدأ أولًا بالمعلم.

*فالمعلم فترة التعليم عن قُرب (قبل الجائحة) كان يعمل في اليوم الدراسي الاعتيادي من الساعة 7 صباحًا ولغاية الساعة 2 والربع ظهرًا، بينما الآن أصبح الحلقة الأضعف إذ أن وقته مفتوح وهو ملاحق من الإدارة المدرسية والطلبة وأولياء الأمور خارج أوقات العمل، وهذا الأمر كما لا يخفى عليكم انتهاك صارخ لحق المعلم في الخصوصية والاستمتاع بوقت الراحة والإجازات شأنه شأن أي موظف يعمل في القطاع العام أو الخاص.

وأنا هنا أطرح سؤالًا على بعض الإدارات المدرسية التي تسمح لنفسها الاتصال بالمعلمين بعد انتهاء الدوام الرسمي وتكليفهم بمهام، يا ترى ما المهام التي تحمل صفة الاستعجال ولا

يمكن أن يقوم بها المعلم الموظف في أوقات العمل الرسمي الثمان ساعات؟!

استعدادات المدارس

كثير من المدارس تشتكي من ضعف

شبكة الإنترنت وبطء الأجهزة في غالبية المدارس، فالدرس أحيانًا يتعطل بسبب خلل تقني، كما يقوم عدد ليس بالقليل من أولياء الأمور أوقات البث بتلقين أبنائهم وبناتهم الإجابات والمعلمون يسمعونهم، والإدارات المدرسية على علم بهذه التجاوزات، وهناك بعض المعلمين والمعلمات في مجموعات الواتساب مع أولياء الأمور يقرؤون المناقشات من ولي أمر مثلًا يقول أنا حليت الواجب!

ثمة مسائل تغيب ربما عن البال، وهي أن أوقات حل التطبيقات محددة بوقت الدوام الرسمي من الساعة 8-2، وبالتالي يتعارض مع أوقات الأمهات العاملات وأولادهم في البيوت! فكيف يتابعونهم وهم أطفال؟

كما أن ظروف السكن لبعض العائلات تمثل تحديًا هو الآخر، حيث تسكن الأسرة الواحدة في غرفة واحدة أو شقة مكونة من غرفتين، ولديهم أربعة أولاد مثلًا، فكيف يتم توفير أماكن هادئة وملائمة للدخول إلى البث؟!

لا زلنا نستبشر خيرًا بحملة فينا خير، في مبادرة توزيع الأجهزة المحمولة اللابتوبات على طلبة الأسر من ذوي الدخل المحدود، مع الأخذ بعين الاعتبار ظروف الأسر التي بها أكثر من 3 إلى 5 أطفال من مراحل دراسية مختلفة، وصعوبة توفير جهاز محمول لكل واحد منهم، هذا فضلًا عن حدوث بعض المواقف الطريفة العديدة التي تصادف بعض المعلمين، فأحيانًا الطالب موجود وحاضر فعليًا في الصف مع المعلم، وفي الوقت نفسه هو موجود في التيمز ويجاوب! (الأم حاضرة في التيمز).

نقلاً عن حساب الفنان خالد الهاشمي من «انستجرام»

خلاصة وتعقيب

ـ التعلّم الحقيقي حق من حقوق الإنسان، وذلك لن يتحقق من غير العدالة والمساواة وإتاحة فرص التعلّم الذكي للجميع بلا استثناء.

ـ التعليم التقليدي القائم على الحفظ والتكرار وحشو المعلومات هو الوجه الآخر لتعليم فاسد وثقافة الشهادات الورقية بلا مهارات.

ـ بناء العقلية الناقدة للمتعلم هو أساس أي تغيير في التعليم.

ـ المشكلة ليست في محاولة تطوير التعليم، وإنما في قدرتنا على تفكيك منظومة التعليم الموروثة.

ـ أهم تحديات تطوير التعليم هو استبدال ثقافة التمدرس النمطي بثقافة التعلم الحقيقي.

ـ التعلّم الحقيقي شخصي جدًا (أي غير قابل للتعميم)؛ لأنه يتوقف على شخصية المتعلم ودافعيته للتعلم، بشرط وجود بيئة تعلم مناسبة.

ـ في نظم التعليم الجيدة يتم تقييم المدخلات والعمليات دومًا، وهو أهم بكثير من تقييم المخرجات مقارنة بنظم التعليم التقليدية.

ـ المعلم داخل الصف الدراسي (عن قُرب) لا ينقل المعلومات فقط، بل ينقل خبراته وموقفه من المعرفة والحياة والمجتمع.

ـ التعليم الحقيقي يشبع فضول الطفل ويسهم في تنمية الشك الإيجابي لديه.

ـ تقييم إنجازات الطلبة طوال العام الدراسي أفضل بكثير من اختبارات نهاية العام والتطبيقات التي يتولى أولياء الأمور حلها، فهل نستطيع التغيير؟!

ـ مجتمعاتنا للأسف الشديد اختزلت التعليم في اختبار نهاية العام الدراسي!

ـ إدارة ملف التعليم لها أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية، قبل أن تكون تربوية.

ـ مجتمعاتنا تغضب عندما ندعو لإصلاح التعليم، ولا تغضب لتفشي ظاهرة الدروس الخصوصية والمذكرات الدراسية التي تعلب عقول الطلبة وكذا استحداث آليات للغش الجماعي وتسريب أسئلة الامتحانات.

ـ القضية ليست تطوير المناهج، ولكن القضاء على ثقافة الحفظ والقهر وشهادات الزور الورقية!

ـ تطوير التعليم يجب أن يكون بدافع أننا أمة في خطر.

ـ لا يتحقق التعلم الحقيقي بدون أن يتوفر لديك ثلاث ركائز أساسية: رغبة حقيقية وحاجة للتعلم وبهجة المعرفة.

ـ ثقافة التعلم الحقيقي تقوم على أساس أن الهدف من الاختبارات هو تحديد ما الذي يجب أن يتعلمه الطالب، وليس ما الذي تعلمه في نهاية العام الدراسي..!

وأخيرًا .. التعلم عن بُعد لا يمكنه أن يكون بديلًا أبديًا للتعليم المعتاد.

* ملخص ورقة قدّمت في «ملتقى التقدمي» الأسبوعي بتاريخ ٢٤ يناير ٢٠٢١

بصراحة

الدولـة المـدنيـة في البلـــدان العـربيـــة

كثيراً ماكُتب عن الدولة المدنية وأهميتها، وهل تختلف عن الدولة العلمانية أو تتقاطع وتتداخل معها في كثير من المقومات والشروط، وماهو النموذج الافضل لبلداننا في الخليج والوطن العربي عامة، الدولة المدنية أم الدولة العلمانية، فالأولى تبدو مقبولة من بعض التيارات الفكرية والسياسية في بلداننا التي ترفض أي توجهات علمانية لأسباب عدة، وبعض الأحيان ممكن تتغنى بشعار الدولة المدنية وهي لا تؤمن به، ولكن لمقتضيات الحاجة والضرورة، ولمسايرة الأطراف الأخرى في المجتمع، وربما لتعزيز التحالفات مع بعض من القوى المدنية والعلمانية لصالح تحقيق أهدافها الاستراتيجية البعيدة، ونجد مثالاً واضحاً في ذلك أداء حزب النهضة "الأخوان المسلمون» في تونس، الذي يتعاطى مع الأمور ببراغماتية هناك، لكي لا يخسر مواقعه السلطوية مستفيداً من تجربة الأخوان المسلمين في مصر، متحاشياً تكرار سيناريو ماحدث هناك، فيعمل بالتكتيك السياسي ليخدم الاستراتيجية، حدّ القبول بفكرة الدولة العلمانية طالما تحقق أهدافه البعيدة المدى .

فاضل الحليبي

هل يمكن الدولة المدنية أن تتحقق في بلداننا الخليجية والعربية بعيداً عن حسابات وأهداف القوى الإسلامية بكل الألـوان والتنوعات المذهبية التي ممكن أن تتفق عليه؟، إذا كانت السلطات الحاكمة تريد إحداث التغيير والإصلاح والتصدي لقضايا الفساد وسارقي المال العام والتوجه نحو بناء دولة القانون والمؤسسات والمشاركة الفعالة للمواطنين في القرار السياسي من خلال تشكيل المجالس النيابية والبلدية المنتخبة صاحبة الصلاحيات الواضحة، تضع حجر الأساس لولادة الدولة المدنية، التي لها مقومات رئيسية لا يمكن تجاوزها مثل السماح بحرية الـرأي والتعبير والحـريـات العامة ووجـود صحافة حرة وتشكيل منظمات وهيئات المجتمع المدني "الأحزاب السياسية، الاتحادات العمالية النقابية والنسائية والطلابية والثقافية»، ومشاركة المرأة في الحياة السياسية، التسامح والتعايش بين أفراد المجتمع والدولة، وبـدون ذلك لا يمكن أحداث التغيير والإصلاح الجاد في أي بلد خليجي أو عربي.

ربما يقول قائل إن الأمور تأتي خطوة خطوة، ولا يمكن للتغيير أن يحدث دفعة واحـدة في بلداننا التي يغلب عليها الطابع القبلي والأبوي، وهي محكومة بالعادات والتقاليد ولم تتطور فيها علاقات الإنتاج، وتترسخ فيها مفاهيم الحداثة والتغيير الجذري، واقتصادها ريعي غير منتج، ولكن عملية التغيير لـن تحـدث سـواء كانت سياسية أو اقتصادية، إذا لم يسبقها تغيير في مناهج التعليم، لتواكب هذا العصر وتطوراته وأحداثه، ففي بعض البلدان الخليجية تشكل مناهج التعليم الحالية عائقاً لما تحتويه من معوقات في إحداث الإصلاح والتغيير المنشود، لابـد من خطوات عملية في هـذا المسار الأهـم للارتقاء بالوعي المجتمعي، ومن ثم التوجه نحو وضع الأسس الديمقراطية وترسيخ مفاهيم الواجبات والحقوق للمواطنين، وفصل السياسة عن الدين، واحترام كل الديانات والمذاهب وحرية الرأي والمعتقد وعدم التمييز، وتعزيز المساواة والعدالة الاجتماعية، فكلها ركائز أساسية في قيام الدولة المدنية الديمقراطية المنشودة.

كتب بعض الباحثين العـرب عن الدولة المدنية، كلٌ حسب فكره وتوجه السياسي يقرأ الواقع في بلاده، فعلى سبيل المثال فإن حسني الخطيب كتب في عام 2018 عن خصائص الدولة المدنية قائلاً: «أهم خصائص الدولة المدنية هو التمييز بين المجال العام والمجال الخاص، وعدم خَلْط الدين بالسياسة، وليس من وظائفها أيضاً مُعاداة الدين كما يذهب إلى ذلك خصومها، لكن من واجباتها وضع مسافة واحدة بينها وبين الأديان، وعدم السماح باستغلال الدين أو استخدامه لأغراض خاصة أو سياسية، مع تأكيد الاحترام لجميع الأديـان وحق الإنسان في العبادة وممارسة الشعائر والطقوس بحرية ومن دون قيود، وذلك بما يُحدّده القانون العام الحاكم، أي عدم التجاوز على حقوق الغير.

فيما يقول الباحث المغربي أحمد عصيد :"يدفع أنصار فكرة الدولة المدنية التي لا تعتمد في تشريعاتها على الإسلام كمصدر للتشريع، بأنها هي الضامن للاستقرار وأنها تستوعب معتنقي كافة الديانات المختلفة والتيارات الفكرية المتعددة بعكس ما يمكن أن تفعله دولة تقوم على أسس دينية أو يحكمها الإسلام السياسي. وفي حواره مع DW عربية،

يقول عصيد : "إن الإطار السياسي الوحيد الذي يمكن من خلاله وجود تعددية دينية أو فكرية هو الإطار الديمقراطي العلماني، أما خارجه فلا يمكن احتواء هذه الصراعات بشكل سلمي "لأن الأنظمة الدينية تغذي الكراهية باسم الدين، بعكس الإطار العلماني الذي يساوي بين المواطنين».

أما الباحث المصري أحمد بان، فيرى أن المشكلة الحقيقية هي في بنيوية تيارات الإسلام السياسي في العالم العربي والتي لديها خطابان، "خطاب تصدّره للمجتمعات الغربية وللنخب الليبرالية والعلمانية وتتحدث فيه عن فكرة التعايش والقبول بالآخر وقبول التنوع وخطاب آخر داخلي فيه تعالٍ على الأفكار الأخرى، وهي نفسها لَم تقبل التنوع داخلها لكي تقبل بتنوع آخر».

هل تصبح الدولة المدنية الديمقراطية في بلداننا فقط فكرة لن تتحقق في المنظور القريب أو فكرة مؤجلة في ظل العديد من المعوقات والموانع، لأن مقومات وشروط قيامها لن تتوفر في الوقت الحالي والمسارات والتوجهات السياسية مختلفة في أكثر بلد عربي تتزايد فيه الخيارات الأمنية ومظاهر الاستبداد والقمع، والتضييق على الحريات العامة والديمقراطية وتنتهك فيه حقوق الإنسان وينتشر الفساد وتزداد أعداد الفاسدين وسارقي المال العام، ويبرز التطرف والغلو وكراهية الآخر في المجتمع.

أزمة القراءة في المجتمعات العربية

جلال إبراهيم

عند الحديث عن القراءة ومستوى الإقبال عليها في الدول العربية نجد أنها ضعيفة لعدة أسباب، أهمها ارتفاع نسبة الفقر والأمية في العديد من الدول العربية. ويضاف إلى الأمية الأبجدية الأمية الثقافية التي تتمثل في أن أكثر المتعلمين لا يقرؤون، إما لعدم القدرة على التفاعل مع الثقافة أو لعدم الرغبة في هذا التفاعل.

حتى في المدارس والجامعات العربية نجد أن الغالبية العظمى من الطلبة يكتفون بالكتب المقررة، في ذلك تستوي الجامعة مع المدرسة، فلا المدرسة تشجع على المطالعة، ولا الدراسة الجامعية تتطلب غير ما يقوله أو يكتبه دكتور المادة. يقول بو علي ياسين: "الطلاب العرب هم عموماً طلاب شهادات، والشهادة مطلوبة من أجل فرص العمل، ومن ذلك حتى التدريس في الجامعة بشهادة الدكتوراه، والغالبية العظمى من هؤلاء الطلبة لا يقرؤون بعد مغادرتهم للمدرسة أو الجامعة، لا كتاباً ولا حتى جريدةً، الشهادة، كوثيقة رسمية وحدها تكفي، حتى لو كان صاحبها قد نالها بالغش".

في السنوات الأخيرة لجأت بعض المدارس العربية إلى فرض القراءة فرضاً على الطلاب كل يوم، فكانت النتيجة عدم تفاعل الطلبة مع هذا المشروع، ليس لأنهم فاقدين لهذه المهارة، إنما كان ينقصهم التحفيز والرغبة الداخلية لحب القراءة. فعْلُ القراءة يجب أن يكون نابعاً من الداخل ومدفوعاً بالفضول المعرفي والتساؤل الفلسفي، وهذا ما يفتقده القرَّاء الصغار والكبار في مجتمعاتنا العربية. وتفسير ذلك يطرحه بعمق جوستاين غاردر في روايته الشهيرة (عالم صوفي) حيث يقول: "الفارق الكبير بين معلم المدرسة والفيلسوف الحقيقي يكمن في أن المعلم يعرف كماً من الأشياء لا يتوقف عن تعليمها لطلابه بالقوة، بينما يحاول الفيلسوف أن يجد إجابات عن الأسئلة التي يطرحها بالمشاركة مع تلاميذه».

من الملاحظ على أغلب القرَّاء العرب التبعية العمياء، خصوصاً للمؤسسة الدينية، حيث يكون القارئ العربي أسيراً للخطاب الديني في رؤيته للوجود والأخلاق والمجتمع والسياسة والفن والثقافة بصورة عامة. فهو أشبه بوصف فيليس مندل للقارئ الفاقد للرأي المستقل بالأسفنجة التي تمتص الماء، وهنا ينصح القارئ أن "لا تقرأ مثل الإسفنجة، تنتظر بشكل سلبي حتى تمتلئ بالمعلومات، بل اقرأ بتمعن وتساؤل، وتعاملْ مع المقروء بندية وأقحمْ نفسك داخلها موافقاً أو مخالفاً أو مُضيفاً أو معدلاً أو مقدراً، وتعلمْ إضافة الملحوظات الهامشية لحظات القراءة فهي لا تتكرر وتعكس مهاراتك العالية في التحليل والتركيب».

أنواع القرَّاء عديدون، فمنهم من يقرأ للتسلية، وآخرون من أجل سدّ وقت الفراغ، ومنهم من يقرأ لتحقيق النجاح في دراسته والحصول على شهادة توفر له عمل ودخل جيد. ولكن هناك من يقرأ لأن الحياة عنده سؤال وبحث لا يتوقفان حول كل المعارف والأفكار والقيم بما فيها الثوابت والمسلمات. والقارئ النهم الذي لا يتوقف عن قراءة الكتب يتميز دائما بأن مفرداته وأفكاره ومواضيعه تتجدد باستمرار.

القارئ المميز هو من يقرأ بصورة مغايرة عن الآخرين. فهو لا يقرأ الكتب التي يقرؤها الغالبية من القرَّاء، ولا يؤمن بذات الأفكار التي يسلّم بها أفراد مجتمعه. بينما الجماعات والأحزاب الأيديولوجية التقليدية من دينية وعلمانية أعضاؤها عادة ما يتطابقون فيما يقرؤون فلا يتباينون كثيراً فكرياً وثقافياً. ولهذا ينتقد هاروكي موراكامي القارئ الذي يضع نفسه في إطار جماعته المحدودة " إن كنت تقرأ الكتب التي يقرؤها الآخرون فقط، ستفكر فيما يفكر فيه الآخرون فحسب».

ولا بد من التمييز بين التعلم والقراءة وبين الفكر، حيث الأخير يشير إلى قدرة العقل على تصحيح الاستنتاجات بشأن ما هو حقيقي أو واقعي، وبشأن كيفية حل المشكلات. بينما التعلم عملية تذكر وتدريب للعقل وتعديل في السلوك. وبتعبير شوبنهاور: "القراءة والتعلم شيئان يستطيع أي إنسان أن يزاولهما بمحض رغبته، أما الفكر فلا، فالتفكير يجب أن يقدح كما تقدح النار في تيار من هواء". فهل مشروع تحدي القراءة –مثلا– الذي يعتمد على الكم وليس على الكيف يتقاطع مع ما دعا إليه شوبنهاور أم يتناقض معه؟!

القراءة الكمية السطحية شيءٌ، والقراءة الفكرية العميقة شيءٌ آخر. الأولى هي أقرب للتسلية وملء وقت الفراغ، أما الثانية فهي قراءة تحليلية يقوم فيها القارئ بتحليل الأفكار بشكل عميق، والتفكير بأسلوب نقدي. القراءة الكمية السطحية في الغالب صاحبها مقيد وأسير لثقافة بيئته ومجتمعه، بينما الفرد الذي يتصف بالقراءة الفكرية العميقة أُفُقُهُ المعرفي مفتوح على مجمل الثقافات الإنسانية وليس لسقفه النقدي من حدود.

نوال السعداوي امرأة من طراز آخر

إيمان شويطر

نوال السعداوي، المولودة في شهر أكتوبر/ تشرين الأولمن عام ١٩٣١، في قرية كفر طلحة بمركز بنها بمحافظة القليوبية (دلتا مصر)، تخرجت في كلية الطب بجامعة القاهرة، في العام ١٩٥٥ متخصصة في الأمراض الصدرية، وبدأ شغفها بالكتابة منذ الصغر وجمعت بين الطب والكتابة، ولكن ميولها الأدبية طغت على عملها كطبيبة، وقدّمت ألواناً أدبية شتى، كالقصة والرواية، علاوة على كتبها الفكرية التي كرّستها للدفاع عن حقوق الإنسان بشكل عام، وحقوق المرأة بشكل خاص، لا سيما مناداتها بالمساواة، وتجريم ختان الإناث، «دعت الى محاربة الختان منذ شبابها. وعلقت في عام ٢٠٠٧ على وفاة الطفلة صاحبة الاثني عشر ربيعاً بدور شاكر أثناء إجراء هذه العملية قائلة :هل كان يجب عليك الموت لتنيري هذه العقول المظلمة؟ هل كان يجب دفع هذا الثمن بحياتك؟ يجب على الأطباء ورجال الدين أن يعلموا أن الدين الصحيح لا يأمر بقطع الأعضاء التناسلية".

وشاءت الصدف أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في نفس توقيت صدورقرارعن مجلس الشيوخ المصري لقانون يغلظ عقوبة جريمة ختان الإناث، وهي التى كانت من أوائل المطالبات بوقف هذه الجريمة ومنذ عقود طويلة منذ أن كانت هذه المطالبة بحد ذاتها جريمة ولا أحد يجرؤ على التحدث فيها.

الدكتورة نوال السعداوي صاحبة مشروع تنويري ثقافي نسوي، خصوصاً فيما يتعلق بمفاهيم الشرف، والمساواة المفقودة بين الرجل والمرأة في مجتمعاتنا، تحدثت عن عبودية النساء والفقراء من قبل الرجل والدولة، وكررت على الدوام أنه إذا تحررت المرأة سيتحرر المجتمع، وجسدت ذلك في كتبها، ومن بينها "المرأة والجنس»، «مذكرات طبيبة» وغيرها.

أثارت آرائها حفيظة المؤسسة الدينية والسياسية، التي قادتها للسجن في زمن السادات عام 1981، بتهمة التآمر على الوطن ولكنها وكما تقول في مقابلاتها: «كسرت قضبان السجن الحديدية بالكتابة، وكتبت وأنا كلي سعادة باستغلال الوقت وإستغلال ورق التواليت وقلم رسم الحواجب التي سربتها لي إحدى السجانات وبدأت في كتابة «سقوط الإمام"، وتوالت مؤلفاتها التى كانت تربط بين تحرير المرأة والوطن من الفاشية الدينية والتابوهات التى حاول المتشددون والظلاميون غرسها في عقول المجتمع، وقد وضع اسمها على قوائم الإغتيالات، وكانت تخاطب النساء قائلة: «حطمن الأغلال وعشن حُرّات. لا تحدث الثورات في الخفاء والكتابة لاتعرف السرية .. حطمي قفل الدرج وأكتبي في النور، اغضبي وثوري ولا تستكيني».

وقد كرمت بكثير من الجوائز المهمة من عدد من المؤسسات الحقوقية والنسوية والثقافية، بينها جائزة «لشبونة بين الشمال والجنوب» و«إينانا الدولية» من بلجيكا، و«ستيغ داغيرمان» من السويد، و«رابطة الأدب الأفريقي»، و«جبران» الأدبية، وجائزة من جمعية الصداقة العربية – الفرنسية، وأخرى من المجلس الأعلى للفنون والعلوم الاجتماعية.

وفي مثل هذا الشهر من العام الماضي، اختارت مجلة «تايم» الأميركية السعداوي، مع أخريات، في يوم المرأة العالمي، ضمن قائمة الـ 100 امرأة الأكثر تأثيراً في العالم لعام 2020. ولم يكن احتفاء «تايم» بالسعداوي هو الأول بالنسبة للمجلة، فقد سبق أن أفردت غلافها لصورتها عام 1981، في مواكبة لتعرضها للسجن بسبب آرائها التي أثارت جدلاً واسعاً مصرياً وعربياً، وإعلانها رفض اتفاقية «كامب ديفيد» مع إسرائيل، الأمر الذي كلفها وقتها إقالتها من عملها، إذ كانت مديرة لإدارة الصحة العامة في مصر، وأطلق سراحها عقب شهرين من اغتيال السادات. كما سبق أن اختارتها صحيفة «الغارديان» البريطانية واحدة من أهم الكاتبات في إفريقيا في المجال الاجتماعي والسياسي، ومن بين أفضل 5 روائيات وأديبات من القارة السمراء عام 2018.

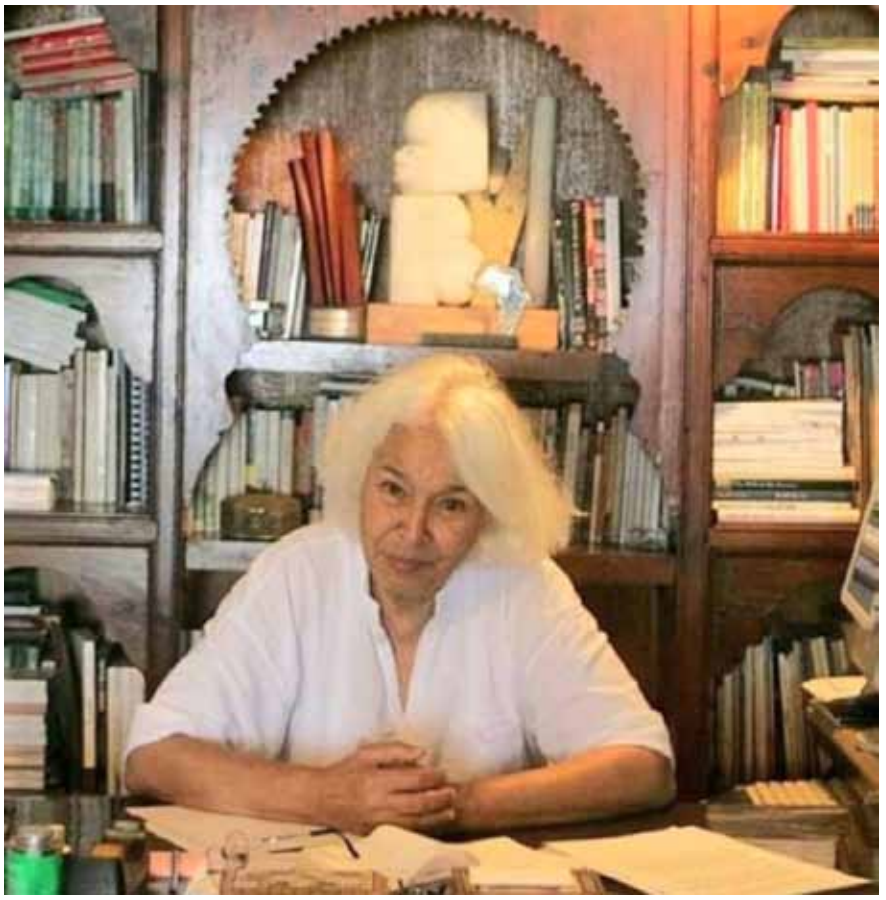

هناك الكثير مما يقال عن هذه المرأة الحديدية الصلبة القوية الجريئة الشجاعة التي لم تثنها السنين ولا كل المغريات عن صمودها بنفس آرائها حتى آخر نفس ورمق، وفي الختام سأورد خاطرة أعجبتني تجسد كل الآراء والأفكار الجريئة التى كانت تتبناها الراحلة وتدافع عنها بضراوة، أهدتها الشاعرة كنزة بن ملاح لروح الراحلة الملهمة الدكتورة نوال السعداوي عشية وفاتها:

«أبكيك اليوم دموع المستعبدات، المقهورات، المختونات، الخاضعات/ أبكيك وأبكي شعباً/ يخال كل الأديان معادية للمرأة/ أبكي تلك التي تضرب كل ليلة وتجبرعلى الجماع/ أبكي نساء لايعرفن قيمة النساء ورجال لايعرفن معنى أن يكونوا رجالاً/ أبكي كل أم وكل زوجة/ وكل ابنة خضعت لنظام أبوي عجرفي/ أبكي من تتلذذ كونها ناقصة عقلا ودين/ ابكيك سيدتي، أودع ذلك الحنين الذى خلت أنه سيشفى بلقياك ذات يوم/ أشيعك لسماء آمنة لك ولمن يعرف قيمة النساء/ نامي في سلام وصلي لنا دائماً نحن الإناث/ كوني قديستنا واحرسينا من بعيد/ لاتتركينا دون رشد أو طريق/ كوني معنا كما كنت قبل حين/ أبكيك سيدتي وأبكي زمناً يجعل من المرأة عورة/ يجعل منها أنصاف الأشياء رغم أنها الكمال والكل/ دمت أمنا/ دمت روحنا/ دامت روحك منبثقة في أرواحنا/ دمت الحنين/ وأنا أقول دمت أمنا/ نامي في هدوء وسلام/ تسعون عاما وأنت لأجلن نحن النساء/ ثائرة على الدوام/ دامت روحك ملهمة وثّابة».

نوال السعداوي وإرثها الخالد في النضال النسوي

وفاء العمم

رحلت نوال السعداوي، الطبيبة والمفكرة والروائية الجريئة، رحلت تاركةً إرثاً كبيراً لا يستهان به في مجال العمل والنضال النسوي. رحلت ابنة كفر طحلة تاركة خلفها فكراً انسانيا حجز مكانه في الذاكرة، حتى إذا ما تكلم المرء عن رموز النضال النسوي في العالم العربي لا يسعه إلا ذكر نوال السعداوي كأبرز هذه الرموز وأكثرها تأثيراً.

في الحقيقة، أرجعني خبر رحيلها بالذاكرة سنوات للوراء، عندما كنت في الثامنة عشر من عمري، حيث شاهدتها لأول مرة متحدثة على إحدى المحطات التلفزيونية، وكانت التعليقات الصادرة من الجالسين حولي بين ناعت لها بالجنون، ومتهم إياها بالتعصب، بينما كانت بالنسبةً لي المرة الأولى التي أستمع فيها لإمرأة تتحدث بهذه الجرأة تكسر التابو تلو الآخر.

تجمدت أمام التلفاز متسائلة من هي هذه المرأة التي أثارت جدلاً واسعاً في الجلسة. بانصات تابعت ما تقول، سجلت اسمها في مذكرتي، وأردت أن أعرف المزيد.

لم يطل الأمر حتى اقتنيت الكتاب الأول، «الأنثى هي الأصل" الذي تذهب فيه نوال السعداوي بعيداً إلى عمق التاريخ بحثاً عن حقيقة المرأة ومكانتها ما قبل الاديان، وما قبل تشكل الأسرة "الأبوية" كما تسميها. بشغف قرأتُ الكتاب، وأعدت قراءته للمرة الثانية، سجلت في مذكرتي المعلومات كحجة لخوض النقاشات عن سطوة المجتمع الذكوري على رقاب النساء. كتاب واحد كان كافياً لإحداث ضجيج مدوي في داخلي، كان كفيلاً بكسر العديد من المعتقدات وذلك في ذروة تمردي على السائد والموروث على القيود الاجتماعية تحت مسميات عدة، تمردي على الأغلال التي كنتُ ومازالتُ أرى أنها تهدف لإبقاء المرأة في مرتبة أقل من الرجل.

من "الأنثى هي الأصل" إلى "المرأة والجنس"، "الرجل والجنس"، ومن ثم الروايات الواحدة تلو الأخرى، فكانت تغذي تمردنا بالافكار.

بمجرد أن نكبر، تتراجع حدّة تمردنا، أو ربما يهدأ اندفاعنا، ولكن لا نتنازل عن حرية أفكارنا، والحقيقة أن هذه المرأة الحديدية المتمردة التي لم تتنازل عن أفكارها وحريتها نجحت في فتح ثغرة في جدار الموروث، وكسر الكثير من التابوهات التي ظلت جاثمة على صدور النساء في العالم العربي لسنوات طويلة.

بصوت عال ودون مواربة قالت "لا" عاليا، وعندما قالوا لها "أنت امرأة وحشية وخطيرة" ردت: "أنا أتكلم الحقيقة، والحقيقة هي وحشية وخطيرة".

مازالت أتذكر كيف تحوّلت نوال السعداوي إلى تهمة بمجرد أن كنا نتحدث عن حقوق المرأة وضرورة مساواتنا بالرجل، أتذكرا جيدا ما قيل لي من قبيل: "أنت متأثرة بنوال السعداوي"، " يا عمي عورتو راسنا بأفكاركم"، ولكن في جوهر الحقيقة أن نوال اتخذت من اسلوب الصدمة منهجاً، فصدمت المجتمع الذكوري بما لم يعتد على سماعه، فكيف لو كان ذلك من امرأة، كما صدمت المجتمع النسائي الذي لم يعتد على خوض المعارك على طريقتها. معارك شرسة بثمن باهظ، معارك من أجل الحرية والمساواة.

لقد تعرضت نوال السعدواي لأبشع حملة تشويه من المجتمع الذكوري ومن رجال الدين على وجه الخصوص، اُتهمت بالإلحاد وخدمة الماسونية وازدراء الأديان، وغيرها من التهم، حرب نفسية من أشخاص عجزوا عن مواجهة الفكر بالفكر.

إذ من المؤسف في مجتمعاتنا العربية التي يسيطر عليها التعصب والعصبيات، عندما تعجز عن مواجهة الفكر بالفكر، تلجأ إلى خوض حروب نفسية من قبل الإزدراء والتنمر والإتهام بالزندقة والإلحـاد والتكفير، بل ما هو مؤسف أكثر أن الكثيرين استسلموا للدعاية السلبية التي اطلقت ضدها دون أن يكلفوا أنفسهم حتى عناء الإطلاع على كتابتها، ونقدها علمياً.

فأين الانحراف الفكري، عندما تقول إن قضية تحرير المرأة قضية سياسية بالدرجة الأولة، لأنها لا تمس حياة المرأة فحسب وأنما تمس حياة المجتمع بأكمله وإن تخلف المرأة وتكبيلها لا يؤخر النساء فحسب بل ينعكس على الرجل والأطفال ويقود إلى تخلف المجتمع.

وأين الزندقة والكفر عندما تقول إن أي دين من الأديان لا يمكن أن يتعارض مع العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، ولا يمكن أن يتعارض أي دين مع الصحة الجسدية والنفسية لجميع أفراده رجالاً ونساءً؛ ولهذا ليس علينا إلا أن نعرف الطريق الذي يقود إلى صحة الإنسان (رجلاً وامرأة) فيكون هو طريق الدين، لأن الدين خلق لسعادة الإنسان وصحته ولم يخلق لتعاسته ومرضه.

نوال السعداوي التي دافعت بقوة عن تحرر المرأة، رفضت بنفس القوة تسليعها واستخدام جسدها في السوق كسلعة وإهانة قدارتها الفكرية وإمكانياتها وحصرها في بعدها الجسدي.

لقد واجهت قضية ختان الاناث بجرأة قلّ نظيرها، ناضلت من أجل تحرير النساء من قيودهن مع ذواتهن قبل أن يخضن معركتهن مع المجتمع، فاحترام المرأة لذاتها وتقديرها لمكانتها هي الخطوة الأولى نحو فرض هذا الاحترام على المجتمع، إذ لا طائل من محاولة تحرير المرأة، اذا ما كانت هي نفسها تعتقد بأنها أقل من الرجل، أو "أنها ناقصة عقل ودين" أو أن أمرأتين تساويان في الكفة قيمة رجل واحد. باختصار تحرير المرأة يبدأ من المرأة ويمتد للمجتمع.

لقد شكلت هذه المرأة حالة فريدة من نوعها لا يمكن القفز عليها أو تجاهلها حتى في اللحظات الاخيرة قبل رحيلها عندما كتبت: "أنا بنت الله، وتفكيري حر"، لقد اختصرت نوال السعداوي نفسها في هذه الجملة. التفكير الحر، أليس هذا ما تحتاجه المجتمعات للتقدم وتتطور؟!

نزيهة الدليمي — نوال السعداوي — فاطمة المرنيسي

نساء على دروب غير مطروقة

خصوم ومنتقدو نوال السعداوي ليسوا قلة، فهي كانت هدفاً لسهام معارضيها، بمن فيهم بعض من يتفقون معها، ولكنهم يأخذون عليها ما يحسبونه غلواً منها، ولكن عدد مناصريها، خاصة من النساء، في مختلف البلدان العربية ليسوا قلة أيضاً، وأظهرت ردود الفعل بعد وفاتها، قبل يومين، هذا الانقسام في الموقف من شخصها وآرائها.

د. حسن مدن

هذا شأن كل الشخصيات الإشكالية في أي مجتمع، وتوخياً للدقة علينا أن نقول هذه حال الشخصيات التي تقارب القضايا الإشكالية، برؤية مختلفة غير معتادة، فلا بد أن يختلف في أمرها المختلفون، وتاريخنا الثقافي والفكري العربي حافل بمثل هذه الشخصيات، وحسبنا هنا أن نذكر اسم طه حسين، كمثال، فما بالنا بالأمر حين تكون الشخصية المثيرة للجدل امرأة، كما هي حال السعداوي التي تحسب لها جسارتها في اقتحام المسكوت عنه دون وجل أو خوف.

ما يحسبه خصوم ومنتقدو نوال السعداوي غلواً وخروجاً على الثوابت هو نفسه ما يحسبه مريدوها جرأة واقتحاماً للتابوهات التي يجب مقاربتها، خاصة عندما يتعلق الأمر بقضية المرأة في مجتمعاتنا العربية، وجميعنا يعلم أن تناول هذه القضية بمنظور مختلف، لم يبدأ بنوال السعداوي، وحسبنا هنا أن نذكر كتابي قاسم أمين: «تحرير المرأة» (1899)، و«المرأة الجديدة» (1901)، وكذلك كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» الصادر في عام 1930، للتونسي الطاهر حداد، خريج جامع الزيتونة، والذي نال في حينه إعجاب طه حسين، حتى قال عن مؤلفه: «لقد سبق هذا الفتى قومه بقرنين».

ويعرف تاريخ مصر نساء رائدات شجاعات اقتحمن دروباً غير مطروقة محفوفة بالمخاطر، بينهن سيزا نبراوي، هدى شعراوي، نبوية موسى، وفي فيلم أعدّته الأديبة إنعام كجه جي عن حياة أول وزيرة في العالم العربي الطبيبة العراقية نزيهة الدليمي، التي توفيت، وحيدة، في صقيع المنفى، نفاجأ بجرأة وإقدام هذه المرأة، التي حكت في الفيلم أنها استقلت حافلة النقل العام، متوجهة إلى القصر الجمهوري في بغداد، حين استدعاها أول رئيس للجمهورية، عبدالكريم قاسم، ليبلغها بأنه اختارها لتصبح أول امرأة وزيرة في البلاد.

ولا يمكن أن نغفل هنا الكاتبة والنسوية المغربية الشجاعة فاطمة المرنيسي التي عرفت بأبحاثها الفكرية والاجتماعية لخدمة قضايا تحرير المرأة، صاحبة العديد من المؤلفات، من بينها "الحريم السياسي"، و"هل أنتم محصنون ضد الحريم؟"، و"ما وراء الحجاب"، "شهرزاد ترحل إلى الغرب"، و"أحلام الحريم"، "نساء على أجنحة الحلم"، ما شكّل تراثاً مهماً ومرجعاً أساسياً ونصيراً للحركة النسائية المغربية والعربية، فضلاً عن إثرائه لفكر الحداثة والتقدم الاجتماعي والفكري في المغرب والعالم العربي.

على خطى هؤلاء سارت نوال السعداوي، الطبيبة بدورها، ولكنها جمعت بين الأدب والطب ووظفتهما في مقارعة كل ما تعدّه معيقاً لتقدّم المرأة ومساواتها بالرجل، غير آبهة بالتحديات، وأصدرت عشرات الكتب، تُرجم بعضها للغات أجنبية، بينها: "مذكرات طبيبة" عام 1960، و"مذكرات في سجن النساء"، ومسرحية "الزرقاء"، ورواية "سقوط الإمام" عام 1987، و"أوراق حياتي" عام 2000. ومن رواياتها أيضاً "امرأة عند نقطة الصفر" المستوحاة من قصة حقيقة لامرأة التقتها وكانت تواجه عقوبة الإعدام.

تراثنا النسوي ما قبل نوال السعداوي!

تحسست في الكتابة نوع من الفن، وفي الفن ما يشبه فعل الكتابة، إنهما لا يعتمدان فقط على قوة العقل، بل على تلك الطاقة الروحية التي تتسرب إلينا من روح الفنان في لوحاته أو موسيقاه، ويحدث ذات الشيء حين يتعلق الأمر بروح الكاتب. كلاهما يجعلنا ننظر للعالم بدهشة وحس مرهف اتجاه القضايا الإنسانية واتجاه كل ما هو رتيب وعادي من حولنا رغم أنه لا يجب أن يكون عادياً بالنسبة للفنان والكاتب. لم أجد في الكتابة غرضا يعالج المشكلات العلمية في البدء، بقدر ما يعالج المشكلات النفسية والروحية للإنسان طوال تاريخه. أحمل دفترا خاصاً أدون فيه الشعر حين اشعر بالألم، وأكتب النثر حين أشعر بالغربة، وأبحث في تاريخ الإنسان، فعرفت أن العلم والأخلاق يتقدمان دائماً ليفندا الكذب الذي ينتهك الروح، ويقيد العقل عن السؤال بحبل دائري من المسلمات يلتف حول أعناقنا.

أحمد السعيد

قرأتُ لأولئك الذين قرأوا التاريخ الإنساني بمنهجية مادية تاريخية. منحتني هذه المنهجية القدرة على الاعتراف بحدود الفكر الانساني: الدين، الفلسفة، العلم، اللغة، وكل حدث في تاريخ الإنسان أياً كان، فإن علاقة كل تلك الأشياء بما يحدث على الأرض أكبر بكثير مما يحدث في السماء، بل نحن نفهم ما في السماء من خلال حدود الأرض التي نسكنها، ولو غبت عن هذه الحدود لتغيرت السماء وتغيرت أسماؤها وطريقة نظرك إليها. ولأن القراءة المادية التاريخة تجعلنا نفهم حدود كل فكرة وكل حركة تاريخية فهي بالتالي تفتح الباب لعقلنا أن يحكم على الأفكار خارج نطاق التقديس، ولمشاعرنا للتعامل مع القضايا الإنسانية بشكل أكثر حرية وموضوعية.

أكِنُّ مشاعر حب عظيمة لنساء عظيمات في حياتي، أولهن أمي التي تعبت في تنشئتنا وصبرت على تربيتنا، وأيضاً زوجتي التي قررت أن تعتمد على نفسها مبكراً وتتحمل جزءً من المصاريف الجامعية عن والدها. وبالرغم من أنني لا أفضل أن أنجب أحداً لهذه الحياة، لكن إذا قدِّر ذلك فإني أفضل أن تكون ابنة قوية وليس ابناً كما يحلم معظم الآباء. أجد الحب أنثويا، وأجد المرأة أكثر احتضانا لخصائصه، فهي الأكثر عاطفة والأكثر تعبيرا عن ضعفها الإنساني أمام المواقف التي تتطلب المحبة والرحمة، وربما هذا هو مصدر قوتها الذي نفتقر للقدرة على الاعتراف به. إذا كتب لهذه الابنة أن تجيء يوماً فإني أريد لها أن تكون حرة، بعيدة عن الأخلاقيات التي تشجع على التحرش من الباب الخلفي المقدس، أو تحاكمُها على مظهرها أو خياراتها الفكرية.

من حبي لتلكم النسوة في حياتي أحببت كل النساء اللاتي دافعن عن حقوق النساء، ومَقَتُّ تلكم اللاتي يقفن كغصة في حلوقهن. وأنا أقرأ في التاريخ انجذبت نحو أولى النسويات في تاريخنا العربي الإسلامي (زرين تاج) أو قرّة العين القزوينية، كانت فقيهةً، شاعرةً، مُدرِّسةً، وباحثةً في العقائد، كل ذلك في زمن كان الفقه والعلم لا يراد لهما أن يخرجا من مجلس الرجال، تخيلتُها وهي داخلة على مجمع فقهاء فارس منتصف القرن التاسع عشر كاشفةً وجهها وهي تحدثهم عن فقه المرأة، إن كشف الوجه بالنسبة للمرأة أنذاك كان يعد نوعاً من السفور. تخيلت المشهد بينها وبين أولئك الذين سحبت عنهم بساط سُلطتهم، سلطة العلم واحتكارهم لحق التصرف فيه وتفسيره. لم يجابهّا أحد ولم يتمكنوا من رد حججها، فما كان منهم إلا توجيه التهمة التاريخية الجاهزة لأمثالها «الهرطقة والخروج عن الدين» فوضعت تحت الإقامة الجبرية، ثم قُتلت.

أحببت الرجال الذين نظروا للمرأة كروح لا جسد، أحببت ابن عربي الذي رأى بأن كل ما يصلح للرجال فإنه يصلح لما شاء الله من النساء، وقال: «إن الرجال والنساء يشتركان في جميع المراتب حتى في القطبية –وهي أعلى المراتب العلمية في التصوف– ولما اصطدم بالحديث لن يفلح قوم ولوا أمرهم إمرأة رد ذلك بقوله: إننا نتكلم في تولية الله لا تولية الناس»(مدارات صوفية ص87) وكان ذلك في زمن يردد فيه الناسُ مقولات مثل: «جنبوهن الكتابة والقراءة» كيف لا وقد درس على يد شيخته فاطمة بنت المثنى زماناً وأكن لها احتراماً وتقديراً كبيرين. وفي الوقت الذي كرر فيه الآخرون من شعراء وفقهاء: "إنَّ النِّساءَ شياطينٌ خُلقنَ لنا " كان جلال الدين الرومي يدافع عن مشاركتها للحياة العلمية والعملية، يقول في كتاب فيه ما فيه: "أنت ليلاً نهاراً تحارب طالباً تهذيب أخلاق المرأة وتطهير نجاستها بنفسك، أن تُطهر نفسك بها خيرٌ من أن تطهرها بنفسك"(فيه ما فيه: الفصل العشرون).

لقد صرح الرومي قبل أكثر من سبعة قرون بأن احتجاب المرأة عن الحياة إنما هو إفساد لمن يظن أنه يُصلح، لأن المسألة هي مسألة تربية جوهر الإنسان وليس قطيعة واحتجاب وعزلة، ذلك نوع قسري يفرض تهذيبا شكليا لا يحترم الذات الإنسانية، ففي نص آخر من ذات الكتاب يقول: "كلما أمرت المرأة أن احتجبي ازداد تلهفها إلى أن تظهر نفسها، وازدادت رغبة الخلق بتلك المرأة. وهكذا تجلس أنت في الوسط، وتزيد الرغبة عند الطرفين كليهما، وتظن أنك تصلح. ذلك عين الفساد. إذا كان لديها جوهرٌ يمنعها من أن تفعل فعلاً سيئاً، فسواء منعتها أم لم تمنعها ستمضي وفق طبعها الجيد وجبلتها الطاهرة...وإذا كانت على عكس هذا، فستظل تمضي في طريقها أيضاً، لا يزيدها المنع إلا رغبة على الحقيقة"(فيه ما فيه: الفصل العشرون). قد يصدم البعض سماع هذا من رجل مسلم عاش في القرن الثالث عشر، لأننا اعتدنا على ترديد مقولات رجال الدين. للمرأة عند الأقطاب موقع أفضل مما هي عند رجال الدين، ولا يصدمك حين تقرأهم ما يصدمك حين تقرأ رجال الدين من أمور تمس المرأة وجوهريتها. لقد نظر الرومي لحجاب المرأة على أنه أمر جوهري وليس قطعة مادية، وهكذا نظر لآية الحجاب وإلى الله الذي خلق الإنسان وميزه بالعقل عن سائر المخلوقات. وإنه لمصيب تماما في فهمه للدين الذي يرتقي بالإنسان ويعبر عن تكريم الله له، وفهم الإنسان لمقاصد الله.

وُصفت قرة العين بالهرطقة وأُعدمتْ، لكنها في الجانب الآخر تسمى الطاهرة، واتخذها البابليون واحدة من ضمن أكثر الشخصيات قدسية، وبسببها تحتل المرأة مكانة رفيعة في البابية. ووُصِفَ ابن عربي في بعض الدوائر الدينية بالزنديق، والكافر الضال، ليس نتيجة رؤيته للمرأة، بل نتيجةً للطريقة التي رأى فيها لله على أنه الواحد الكثير في تجلياته، والحاضر بأسمائه في كل ملّة، فلم يحتمل ضيق الله في أذهان البعض تلك السعة الإلهية عند ابن عربي، فهو يمثل في الجانب الآخر وللكثير من الناس داخل التصوف وخارجه قدوة حسنة وقطب من أقطاب الله، وواحداً من ضنائنه على الأرض.

إن سفر العقل هو سفر الآحاد، لا تسافر الجماعات نحو الحقيقة. في يوم وفاة نوال السعداوي أذكر كل هؤلاء وإن كانوا يختلفون معها في الطريق، وفي بعض القيم، إلا أنهم كلهم نالوا ما نالت وعانوا ما عانت نتيجة دفاعهم عن حقائقهم، فرغم ازدراء الكثير وتصفيق الكثير، إلا أنها كانت كما أرادت أن تكون، لا تعيش حياة مزدوجة واحدة في الخفاء وأخرى في العلن، فذلك عندها مناقض للشرف. وذنبها كذنب أولئك أنها تكلمت بحقيقتها في زمان أراد لها أن تصمت وتذعن، ولكن التاريخ يثبت أنه ليس من نصيب هؤلاء إلا الخلود.

إنجلز ضد ماركس*؟

مائتا عام من فريدريك إنجلز (٤)

إلى جانب ماركس، عمل إنجلز ثورة في النظرية: قام الإثنان بتجميع الإشتراكية الفرنسية والفلسفة الألمانية والإقتصاد السياسي الإنجليزي في منظور ثوري جديد للمجتمع. تمت صياغة هذا المشروع التعاوني الحقيقي من خلال وسيط غريب لمخطوطة مُجزأة بقيت غير منشورة في حياتهما وقد نزلت إلى الأجيال القادمة بإسم الأيديولوجيا الألمانية. وبالرغم من أن هذا النص يُمثل إشكالية، إلا أن إنتاجه يُمثل، كما كتب ماركس وكرّر إنجلز، لحظة أساسية من «توضيح الذات» تم من خلالها تأطير مشروعهما النظري والعملي اللاحق. وتعليقاً على هذه الفترة من حياتهُما، كتب كورش Korsch:

ترجمة:
غريب عوض

عمل ماركس وإنجلز خلال العامين التاليين بالتفصيل على التناقض السائد بين وجهات نظرهُما المادية والعلمية ووجهات النظر الأيديولوجية المُختلفة التي يُمثلُها أصدقاؤهم السابقون من بين الهيغيليين اليساريين (لودفيغ فيورباخ، برونو، باور، ماكس ستاينر) ورسائل بيل الفلسفية "للألمان" أو الإشتراكيين "الحقيقيين."

على النقيض من تقييمات كُلٍّ من ماركس وإنجلز بأثر رجعي لأهمية اللحظة التي كَتَبَا فيها المخطوطات التي وصلت إلينا على أنها الأيديولوجيا الألمانية، فإن من سِمات الأدب المُناهض لإنجلز مُحاولة التقليل من أهمية هذه المخطوطات دليل على لحظة مُحورية في عملية توضيح الذات الفكرية الخاصة بهما.

إحدى مشاكل هذا الخط من الجدل هي أنهُ بالرغم من أن الأيديولوجيا الألمانية لم يكن لها وجود قط على أنها كتاب مُقترح، فإن ماركس وإنجلز لم يعملا على صياغة أفكارهما في الشكل الذي حاولا نشره في عام 1845-46. وكما أشار كارفر نفسه، فإن مُخطط طريقة ماركس المُبيّن في مُقدمته عام 1859 يتبع عن كثب لُغة الفصل حول فيورباخ في الأيديولوجيا الألمانية. بالإضافة إلى ذلك، يُجادل آرثر Arthur بأن جميع الأفكار من كتاباتهما السابقة يتمُ تجميعها في هذه المخطوطات من خلال فكرة أن الناس يصنعون أنفُسهم ويعيدون تشكيل أنفُسهم من خلال تفاعلهم الإجتماعي والمُنتج مع الطبيعة لتلبية احتياجاتهم المُتطوّرة. كانت هذه الرؤية مُتجذرة وموجهة نحو الشكل البروليتاري الجديد للمُمارسة الإجتماعية، وبإعتبارها فلسفة المُمارسة فقد تم اختبارها وتعميقها لأول مرة من خلال تدخل سياسي ملحوظ في الأحداث الثورية لعام 1848-49.

كان عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر لحظة توقع ديمقراطي كبير، عندما أدى عدم التوافق بين مؤسسات القوة الحالية في أوروبا من ناحية والواقع الإجتماعي الجديد للتطور الرأسمالي المُزدهر من ناحية أُخرى إلى إحساس مُتزايد بالتغيير الجذري في جميع أنحاء القارة. إذا كانت هزيمة هذه الحركة سبباً لتأملات ماركس وإنجلز المنهجية بشأن مُساهماتَهُما العملية والنظرية في الحركة، فإن عملهما اللاحق يُفهم على أفضل وجه على أنهُ توسيع وتعميق للنهج الذي صاغاه في أربعينيات القرن التاسع عشر: أصبح عام 1883 محكاً لكُل شيء كتباه وفعلاه. بعد ذلك، ظلّ تعاونهُما الفريد والعميق غير منقوص حتى وفاة ماركس في عام 1883، وبعد ذلك واصل إنجلز مشروعهُما من خلال أعماله السياسية والنظرية وكذلك من خلال التحضير (لإعادة) نشر عدد من كتابات ماركس بما في ذلك، والأهم (والأكثر إثارة للجدل)، المُجلدين الثاني والثالث من كِتاب رأس المال.

إذا كانت أساسيات ستراتيجية ماركس وإنجلز قد تمت صياغتها بشكل تعاوني في مُنتصف اربعينيات القرن التاسع عشر، فإن إنجلز كان يتحرك بالفعل في اتجاه مشروعهما المُشترك قبل أن يلتقي بماركس، وبعد ذلك قدم مُساهمات مُستقلة وهامة لعملهُما التعاوني. وغاريث ستيدمان جونز Gareth Stedman Jones مُحقاً في الإشارة إلى أن يظهر عدداً من الافتراضات الماركسية الأساسية والدائمة أولاً في كتابات إنجلز بدلاً من كتابات ماركس المُبكرة: تحويل التركيز من المنافسة إلى الإنتاج؛ الحداثة الثورية للصناعة الحديثة التي تميّزت بأزمات فائض الإنتاج وإعادة إنتاجها المُستمر لجيش إحتياطي من العمل؛ جنين الحجة القائلة بأن البرجوازية تنتج حفاري قبرها وأن الشيوعية لا تُمثل مبدأ فلسفياً، بل تُمثل "الحركة الحقيقية التي تلغي الحالة الراهنة للأشياء."؛ التحديد التاريخي لتشكيل البروليتاريا في طبقة؛ التفريق بين "الإشتراكية والبروليتارية"؛ والراديكالية الصغيرة أو الراديكالية من الطبقة الوسطى الدُنيا؛ ووصف الدولة بأنها أداة للإضطهاد في أيدي الطبقة المالكة الحاكمة.

هذه قائمة رائعة بشكل لا يُصدق بكل المقاييس. ولكنها لا تروي القصة كاملة. بالإضافة إلى إكتشاف إنجلز المُشترك للطبقة العاملة كعامل ثوري مُحتمل للتغيير، كان أول اشتراكي يُدرك أهمية النِضال النَقابي للمشروع الإشتراكي. كما أنهُ وضع القواعد للفهم التاريخي لظهور قمع المرأة والنظرية الوحدوية لشكلها الرأسمالي. وإلى جانب ماركس، في كِتاب «الأيديولوجية الألمانية»، توسع إنجلز في مفهوم مادي للتاريخ من خلال توليف فكرة المُمارسة مع التصور التاريخي للمصلحة المادية، وبعد ذلك بوقت قصير كتب أول عمل من التاريخ "الماركسي" مُحرضاً تقليدياً مُنتجاً ومؤثراً بشكل كبير.

في هذه المُسودات التي أصبحت البيان الشيوعي، طبق المنظور العام المُبيّن في الأيديولوجية الألمانية على السياق المُحدد لألمانيا في عام 1847، وصاغ مفهوماً ديمقراطياً عميقاً للإشتراكية كحركة دولية بالضرورة، والتي أظهرت بالمُصادفة أن الماركسية في بدايتها حالت دون فكرة ستالين عن الإشتراكية في بلد واحد.

وعلاوة على ذلك، ضد الأصوات الإشتراكية السائدة في عصره، أدرك إنجلز أن النضال من أجل الإشتراكية لم يكُن لعبة مصلحتها صفر. لقد أصر على أنهُ ينبغي على الإشتراكيين دعم الحركات الديمقراطية البُرجوازية مع الحفاظ على الإستقلال السياسي لحزب العُمال بهدف تحدي البرجوازية على السُلطة فورَ هزيمة الحُكم المُطلق. قام بتعميق نظرية «الثورة في الدوام» من خلال مُشاركته في ثورات عام 1848 عندما لعبَ، جنباً إلى جنب مع ماركس، دوراً رئيسياً كصحفي في رفع التحليل الإستراتيجي العام المُبيّن في البيان الشيوعي إلى مُستوى المُمارسة: توسعة وتعميق ونقل

بقلم:
Paul Blackledge

رؤيتيهما على طول الطريق، وبعد ذلك، لعِبَ دوراً في الكفاح العسكري ضد الإستبداد البروسي. وبعد هزيمة هذه الحركة، ركّز الكثير من طاقاته الفكرية على تطوير التحليل المادي للقوة العسكرية، وبذلك أصبح «الجنرال،» كما أصبح معروفاً بين أفراد أُسرة ماركس، أحد أكبر المُفكرين العسكريين في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أنهُ تم رفضها في كثير من الأحيان على أنها مُجرد شذوذ، إلا أن كتابات إنجلز العسكرية كانت ذات أهمية أولى للإستراتيجية الثورية في القرن التاسع عشر وظلت موضع اهتمام الإشتراكيين المُعاصرين على الرغم من أهمية التغييرات في القوة العسكرية خلال القرن التالي.

وربما الشيء الأكثر أهمية، هو أن إنجلز كسب أيضاً أجيالاً من الإشتراكيين إلى الماركسية من خلال نشره الاسلوب الماركسي. وإلى جانب أعماله التعاونية، قام أيضاً بإعداد المُجلدين الثاني والثالث من ماركس رأس المال من أجل نشرهما – ورغم أن الدراسات الحديثة قد وجدت ثغرات في هذا المشروع، إلا أنهُ مع ذلك قام بمُهمة شاقة في تقديم هذه المخطوطات بأكبر قدر مُمكن من الترابط. لقد استفاد اليسار كثيرا من جهوده.

وبالطبع، كانت هناك مشاكل كثيرة مع مُساهمات إنجلز في مشروع ماركس: حول إعادة التشكيل، ونظرية القيمة، والوطنية، ومُهمة صياغة نظرية وحدوية حول اضطهاد المرأة، من بين مُساهمات أُخرى، عانا فكره من فجوات مهمة وأخطاء صريحة. لكن سيكون من الخطأ، والخطير في الواقع، السماح لنقاط الضعف هذه بأن تلقي بظلالها على حكمنا على مُساهمة إنجلز في الماركسية. ما قالهُ لينين ذات مرة عن روزا لوكسمبورغ يمكن أن يُقال بنفس القدر عن إنجلز: قد تطير النسور في بعض الأحيان إلى مُستوى أقل من الدجاج، لكن الدجاج لا يمكن أبداً أن يرتفع إلى ارتفاع النسور.» روزا لوكسمبورغ، كغيرها من المُفكرين الكبار، ارتكبت أخطاء نظرية وسياسية كثيرة مهمة، ورغم ذلك كانت نسراً فكرياً وسياسياً. وبالمثل، مهما كان ضُعفه، كان إنجلز نسراً فكرياً وسياسياً تظلُ كتاباته ذات أهمية أولى لنا في اليسار الثوري المُعاصر الذي يهدف إلى تجنب قيود الإصلاحية دون السقوط في الطائفية وفي الوقت نفسه يقوم بصياغة إشتراكية أخلاقية وبيئية التي تفلت من «العجز في العمل» الأخلاقي للكثير من الخِطاب اليساري الحديث.

* هذا المقال هو إقتباس من مُقدمة كتاب Paul Blackledge الأخير، فريدريك إنجلز والنظرية الإجتماعية والسياسية الحديثة.

العرب والحداثة

محمد المحفوظ

لماذا فشل مشروع الحداثة في العالم العربي، وهل يتحمل المثقفون العرب المسؤولية؟

جاءت الإجابة من أحد المفكرين العرب بالقول: «نعم لأنهم لم يتجرأوا علي مواجهة التراثيين. حتي طه حسين تراجع عن مشروعه بعد أن هيج الاصوليون الشارع ضده وفصلوه من الجامعة»، أما البعض الآخر فإنهم «قنعوا بالحياة شمساً ومرعى.. واطمأنوا للماء في الغدران»، كما قال الشاعر الكبير نزار قباني.

وبالنظر الي ما شهدته أوروبا من مواجهات ومحاكم التفتيش للفلاسفة والمصلحين في العصور الوسطى بما سميت بالثورة اللاهوتية الأوروبية، ففي الواقع العربي لا يزال المثقفون في أبراجهم العاجية مكتفين بالتنظير دون التقدم خطوة واحدة إلى الأمام. هناك دعوات لاطلاق مصالحة بين الدين والحداثة لمواكبة العصر والمصالحة التي ننشدها لا تتم بالاكراه لكن تحدث بقناعة ذاتية محضة.

بابا الفاتيكان في العصور الوسطى قال "الإيمان لا يفرض فرضاً علي الإنسان من الخارج.. واذا لم يكن نابعا من الداخل فلا معنى له»، وأحدثت صرخة البابا نقلة هائلة وتحولاً في الذهنية الأوروبية حيث فتحت حوارا مع الآخر المختلف فكريا وثقافيا، وباعتبار أن أمتنا تشهد حوارات الأديان والثقافات فالأولى، بل الأجدى، هو إقامة حوارات داخلية لتوحيد الرؤى.

أوجز المفكر الدكتور محمد جابر الأنصاري بعبارة قصيرة وبليغة رؤيته للوضع العربي اعتقد انها تلخص الواقع بقوله «إننا كمسلمين لدينا أفضل المبادئ لكننا نعيش أسوأ الأوضاع «. ولا مخرج لنا من هذه الوضع المتردي من خلافات فكرية وثقافية ودينية إلا بتشخيص أوضاعنا عبر رؤية موضوعية تتقصي جذور المشكلة، ولا أظن أنها تستعصي على العلاج . إننا كأمة مسكونون بوهم يعشعش في تلافيف ذاكرتنا بأننا «أمة مهزومة وأننا خارج التاريخ "..ولن تقوم لنا قائمة بعد النكسات العسكرية والحضارية حتى بتنا في آخر قاطرة الركب الحضاري ..مما حدا بأحدهم الي إطلاق مقولته "أن العرب أمة منتصرة لكنها تندب حظها العاثر».

يبدو أن الرؤية التي استند إليها الكاتب تكمن في إعادة الثقة بالنفس وقدرتها علي تجاوز أزماتها أولاً. الروائي الروسي الكبير تولستوي يقول "ليس هناك فرد ضعيف لكن ثمة من يهمل مواطن القوة لديه»، وعندما تتحسس مواقع القوة في عقل الأمة فإنها متوافرة متجددة في الطاقات الفكرية والعلمية عندها يمكن أن نبدأ الانطلاق والجميع مدعو للمشاركة في البناء ولا عذر لمن يتخلف .

ثمة أمر في غاية الأهمية يكمن في مراجعة التاريخ والمراجعة يتوجب أن تكون شاملة والمثال أيضا أوروبا، عندما قيض لها من ينتشلها من سباتها عندما كانت نحوها العقليات البابوية. الانطلاقة بدأت بعصر التنوير أولاً ومن ثم النقلة الكبرى إلى عصر الحداثة وما بعد الحداثة.

يتساءل الكاتب العربي المقيم في فرنسا هاشم صالح: «أين هم المفكرون في دولنا العربية الذين يمكن الرهان عليهم للخروج من هذا الواقع؟ أين هو فولتير العربي؟ وأين هو كانت ؟ وسبنونزا ؟ وهوجو واركون؟».

الدولة الوطنية والتهديدات الداخلية

لم يعد من شك في أن مصادر تهديد كيان الدولة الوطنية ليست خارجية، فقط، وليست تنحصر في مخاطر الغزو الخارجي أو في تصدير الطائفية والمذهبية، أو في تصدير الجماعات «الجهادية» المسلحة المستقدمة من كل حدب وصوب، فقط، وإنما هي في الوقت عينه مصادر داخلية، تأتي الدولة من الداخل الاجتماعي: من بُناه وعلاقات قواه، والنزاعات الأهلية فيه.

عبد الإله بلقزيز

وليست المعارضات السياسية المدنية الحديثة: المنظمة في أطر اجتماعية قانونية مشاركة في السلطة أو غير مشاركة في جملة مصادر الداخل المهدِّدة، إلا حين تجنح للعنف أو تركب لتحقيق أهدافها مركباً «دينياً» أو طائفياً أو مذهبياً أو قبلياً أو عرقياً، وما شابهه.

حينها فقط، تتحول إلى خطر يهدد بنقض كيان الدولة، على مثال ما شهدنا عليه في حالات عربية عدة بمناسبة عاصفة أحداث ما عُرف باسم «الربيع العربي».

بأي معنى يمكن للداخل الاجتماعي العربي أن يتحول إلى مصدر تهديد لكيان الدولة الوطنية ووحدته واستقراره؟

يحصل ذلك غالباً في حالة المجتمعات العربية التي تعاني نقصاً حاداً في علاقات الاندماج الاجتماعي، وهي الكثرة الكاثرة في تلك المجتمعات؛ أي في تلك الفئة من المجتمعات التي يجوز تسميتها ب«العصبوية» أو القابلة للصيرورة عصبوية عند أي أزمة اجتماعية أو سياسية يتعرض لها كيانها. لقد قضى تكوين الدولة «الحديثة» في البلاد العربية بأن تقوم هذه على قاع اجتماعي هش من تكوينات أهلية تقليدية تميزت في الغالب منها بانكفائها في عصبياتها الموروثة، وضعف صلاتها في ما بينها باستثناء تلك التي تنشأ بينها في نطاق الدولة والسلطة المركزية ومؤسساتها.

والأنكى من هذه القاعدة الاجتماعية «العصبوية» الفسيفسائية أن هذه العصبيات لم تكن تسلّم، بسهولة، بقيام سلطة مركزية تصادر منها سلطتها الأهلية الموروثة عن الاجتماع التقليدي؛ بل كثيراً ما مانعت ضد سياسات المركزية، محاولة الحفاظ للعشائر والقبائل والطوائف والمذاهب والمناطق على بعض ما كان لها من سلطان على نواحيها.

ولقد وقع تركيب نظام سياسي، في هذه الدولة، على هذا التكوين العصبوي الفسيفسائي، فأتى النظام هذا يطل بصيغتين ووجهين: إما في شكل نظام قائم على الاحتصاص (المحاصصة) الطائفي، على مثال ما في لبنان وعراق ما بعد الاحتلال في صورة من ذلك التقاسم واضحة و«دستورية» أو عرفية وعلى مثال حالات عربية أخرى يؤخذ في حساب توزيع السلطة فيها التمثيل الأهلي العصبوي، وإما في شكل نظام غير «احتصاصي» في توزيع التمثيل فيه، لكنه خاضع لابتزاز عصبيات المجتمع الأهلية، ومدعو إلى أخذ مصالحها في الحسبان لئلا يصطدم بها، أو يدفعها إلى الاستنفار ضده. وفي الحالين، بدا النظام السياسي الذي من هذا الجنس، ضعيف الكيان أمام عصبياته الأهلية، وشديد التأثر بأي أزمة اجتماعية وأي اختلال في توازنات قوى المجتمع العصبوي.

لسنا بحاجة إلى أن نفيض في بيان ما كان للهندسة السياسية الاستعمارية من دور حازم في تكوين مثل هذا النظام السياسي القائم على قاع عصبوي، سواء جرت الهندسة تلك في إطار عملية التجزئة السيكسبيكوية (المستكملة فصولها في العراق بهندسة بول بريمر) أو في سياق عملية إدارة الاحتلال الاستعماري للبلدان العربية الواقعة تحت سيطرته، وتركيب نظام سياسي خلالها ورثته دولة الاستقلال، لكن الأدهى من طامة الهندسة «الكولونيالية» لهذا النظام أن دولة الاستقلال تمسكت به، واستمرت في إعادة إنتاجه مع علمها بما يتولد منه من أزمات اجتماعية وسياسية.

عاينا، في زمن مضى، فصولاً من تخريب الداخل الاجتماعي العصبوي لكيان الدولة الوطنية في لبنان والسودان والعراق.

وها نحن ما نزال نعاين فصولاً أخرى من تقويض العصبيات للدولة، منذ هبّت عواصف «الربيع العربي» الهوجاء في العقد الثاني من هذا القرن، فضربت أركان الدولة في سوريا وليبيا واليمن، وهددت بذلك مصر وتونس لولا بعض من اليقظة الوطنية. واليوم، لم يعد من جدال في أن وحدة الدولة الوطنية وتماسكها، في وجه خطر التفكيك من الداخل، يتقدم أي مطلب آخر؛ بل ينبغي أن يصبح أول المهمات والأولويات البرنامجية على جدول الوحدويين العرب، بالنظر إلى أن العصبيات الأهلية وقواها المسلحة باتت حصان طروادة الاختراق الأجنبي وأداته التدميرية في الداخل الدخل الاجتماعي والسياسي العربي.

في رحاب الذكرى 110 لولادة عبد الرحمن المعاودة (2-2)

سيرة التنوير والمسرح والشعر

كريم رضي

يقول عبد الحميد المحادين: «كانت مدرسة الإصلاح التي أسسها المعاودة تقبل التلاميذ من مختلف الأعمار، وكانت المدرسة تُعلّمهم لمدة ست سنوات، وتمنحهم ما يعادل الشهادة الإبتدائية، مقابل روبيتين من أبناء الأغنياء، وروبية واحدة من أبناء الأسر متوسطة الدخل، ولا شيء من أبناء الفقراء حيث يدرسون بالمجان، بل ويحصلون على كسوة العيد. (مجلة بناوراما الخليج – يونيو ١٩٩٤).

كان عدد طلاب مدرسته يتراوح ما بين أربعين وخمسين طالبا، يرتفع إلى مائتي طالب في فصل الصيف بسبب إغلاق المدارس الرسمية أبوابها ورغبة الناس مع ذلك في مواصلة التعليم والتقوية في العطلة. (عبد الله المدني – الأيام – 25 ديسمبر 2015)

وإذن فلا نكاد نجد في كل هذه السيرة ما يشي برفض الناس أو نفورهم من التعليم، بل العكس هو الصحيح، لدينا شعب متطلع إلى التعلم، يركض لنهل ما يستطيع من منابعه في العام المدرسي وفي العطلة أيضاً في سباق مع الزمن لاستدراك ما فاته من العلم، وهو ما يفترض أن يكون التأريخ للتنوير بالضرورة أفقياً لا عمودياً. أعني أن يكون تاريخ التنوير هو تاريخ الناس أيضا وليس نسبته إلى شخص بعينه.

تمّيز المعاودة بأن التعليم لديه لم يكن مشروعاً تعليمياً فقط لإكساب مهارات القراءة والكتابة أو ما يسميه المصريون (فك الخط)، فإذا ما أخذنا البعد الإصلاحي لديه في المنهج الدراسي كان مشروعاً فكرياً وثقافياً، خاصة إذا ما علمنا أن «السيد أدهم الذي عينته السلطات البريطانية في المعارف كان يسعى إلى عدم تجاوز التعليم المرحلة الاتبدائية.» (عبد الله المدني – الأيام – 25 ديسمبر 2015)

ألا يعيدنا هذا إلى سؤال أساسي هو: ماذا عن دور الغرب في إدخال التنوير إلى منطقتنا العربية والإسلامية؟. بالطبع لا تخلو العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر بكسر الميم ثم فتحها من تأثير

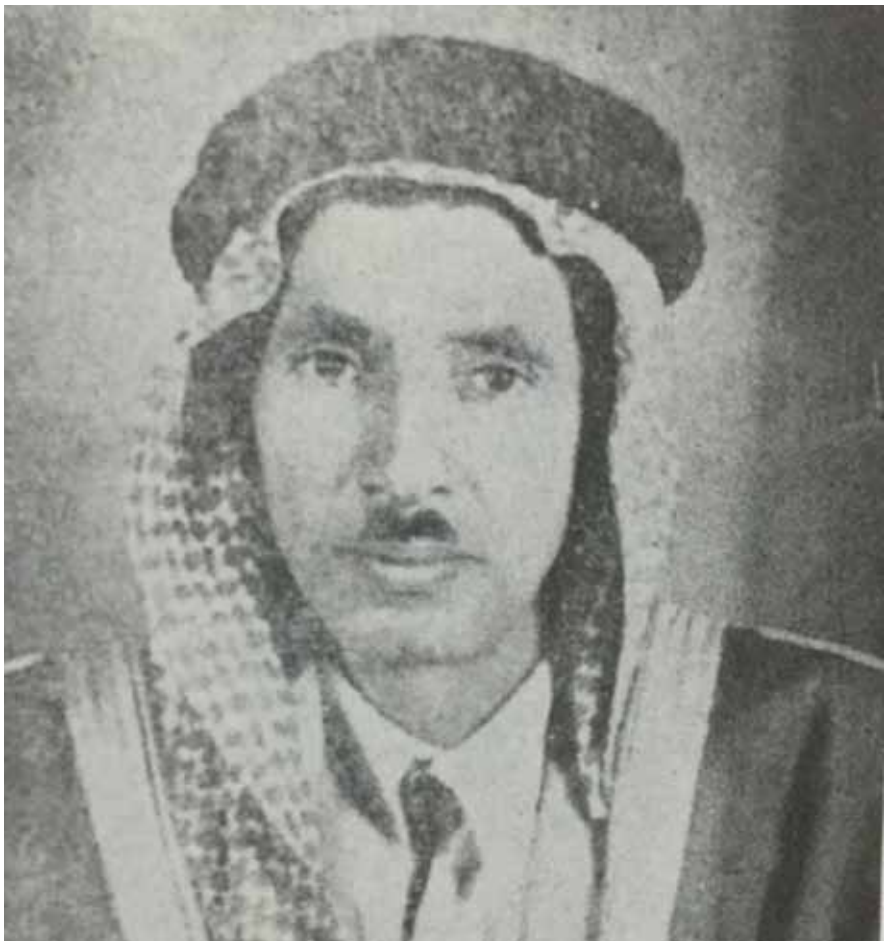

الشاعر عبدالرحمن المعاودة

وتأثر، على أن ننتبه هنا إلى ما يقوله تودروف في كتابه "روح الأنوار" وهو أن حركات التحرر من الاستعمار تصبح أكثر تنويراً من المستعمِر الذي حمل إليها لأول وهلة مشعل التنوير كما نتصور!.

وفي سياق آخر يشير باحث مهم في العلاقة بالمستعمر هو الإفريقي فرانز فانون في كتابه (معذبو الأرض)، إلى دور التعليم لا كوسيلة تنوير بل في نفس الوقت وسيلة هيمنة أيضاً، وسيكرر هذا الكلام باحث آخر مهم في العلاقة مع الأستعمار هو الإيراني علي شريعتي في كتابه (العودة إلى الذات).

ثمّة تعليم حمله الغرب المستعمر، فرنسياً كان أو بريطانياً، إلى بلداننا ولا شك في ذلك وفي أنه كان مفيداً، لكن، وككل ظاهرة تحمل نقيضها في أحشائها، كان تعليماً محسوباً بدقة لأن يخرّج أجيالاً قادرة على استعمال أو شراء ما ينتجه المستعمِر من رأسمال مادي ومالي ورمـزي أيضاً. فلا ننسى حقيقة أن التعامل مع المستعمر يحتاج حداً أدنى من التعليم.

دخل المعاودة من خلال هذا المشروع التربوي والتعليمي والإنساني تاريخ البحرين كواحدٍ من رجـالات التعليم الأوائل فيها، ممنّ قدّموا لبلدهم وشعبهم خدمة وطنية واجتماعية لا تقدّر بثمن في حقبة تميزت بالأوضاع المعيشية الصعبة للسواد الأعظم من الناس.

وبرغم عدم تقاضي مدرسي مدرسة الإصلاح أجرا نظير عملهم ،وبرغم دعم الأهالي القادرين للمدرسة لاستمرارها واستيراد الكتب من مصر، إلا أنها في النهاية شكّلت عبئا على المعاودة، فتركها بعد مـا يـقـرب مـن عقد من تأسيسها لشخص آخر جعل إدارتها في عهدته وترك البلاد مهاجرا إلى بومباي. ثم عاد في 1950 وما زال شغف تأسيس المدارس يشغله فأسس مدرسة الإرشاد والتي لم تستمر هي الأخـرى بسبب كلفتها المادية بإزاء موارده المحدودة.

ثالثاً: المعاودة والمسرح

عُرف عبد الرحمن المعاودة بجهوده التأسيسية في المسرح، فقد كتب العديد من المسرحيات التي مُثلت على خشبة مدرسته أو نـادي الإصـلاح أو نادي

البحرين بالمحرق، وكانت تلك المسرحيات تستنطق التاريخ العربي والإسلامي كما هي عادة المثقفين والأدباء الإحيائيين في تلك الفترة، وحيث يمثل الماضي نموذجاً للمستقبل المنشود، ومثّل في مسرحياته عدد من شبان تلك الفترة من الطلبة الموهوبين أمثال المرحوم علي سيار الصحفي المعروف، وابراهيم منصور، وعيسى الجامع، وأحمد الزياني.

بالطبع لم يدرس المعاودة المسرح، لكنه ذات الشغف الذي قاده لكي يؤسس فضاءات التعليم المختلفة ويكتب الشعر وقراءته لمسرحيات أحمد شوقي، بل ومشاهدته المسرح في بيروت أثناء دراسته كان دافعه لكي يؤسس أولى التجارب المسرحية المبكرة في البحرين.

كان المعاودة يأتي بالديكور وكراسي المتفرجين بنفسه، وكذلك أكسسوارات الأعمال المسرحية من سيوف وخناجر، بالإضافة إلى تأليفه مقاطع كوميدية مثلما يصطلح عليه اليوم (خارج النص) ليتم تقديمها بطريقة تتخلل العروض المسرحية.

ومن أهم المسرحيات التي ألّفها وقدّمها المعاودة: «عبدالرحمن الداخل»، «الرشيد وشارلمان»، «سيف الدولة بن حمدان»، «المعتصم بالله»، «جبلة بن الأيهم»، «العلاء بن الحضرمي» (دخول البحرين في الإسلام)، «يوم ذي قار»، «أبوعبدالله الصغير» (خروج العرب من الأندلس)، «هولاكو وسقوط بغداد».

ونحن إذ نتحدث عن المسرح هنا، لا يمكن أن نفصله عن القسم الأخير من هذه الورقة وهو الشعر. يقول عبدالله الطائي في كتابه «الشعر المعاصر الخليجي»: (مثّل الاهتمام بالمسرح أهم ملمح تجديدي في شعر المعاودة، فهو من الرواد في هذا المجال إذ لم يكن الدمج بين الشعر والمسرح أمراً معروفاً لدى شعراء الخليج المعاصرين).

قد تثار هنا إشكالية المباشرة والبساطة في الشكل واللغة والمهارة الفنية، لكن علينا ألا ننسى مسألة الريادة في كتابة الشعر المسرحي فحتى اليوم، ونحن في القرن الحادي والعشرين، لا نجد الكثير من كتاب المسرح الشعري لدينا اللهم إلا علي الشرقاوي وابراهيم بوهندي.

ويقول المعاودة عن هذه التجربة: (اهتممتُ بالشعر المسرحي مثلما فعل العريّض وكنتُ على مدار سنوات أنتج مسرحية كل سنة ضمن إطار المسرح المدرسي، وأظن أن عددها عشر مسرحيات أو روايات مسرحية تمثيلية، وقد ضاعت كلها ولم أحتفظ بواحدة منها، وقد ألفتها وأخرجتها، وحتى الديكور كنت أضعه بنفسي). وفي قراءته لتاريخ الحركة المسرحية يقول مبارك الخاطر: (ألّف المعاودة عشرمسرحيات شعرية، ولا نظير لتجربته إلا أمير الشعراء أحمد شوقي وعزيز أباظة. (مبارك الخاطر – المسرح التاريخي).

ويقول المعاودة: (كانت مسرحيات تؤصل للتاريخ في نفسية الطالب وتشحنه بالعزة والفخار والوطنية). (مساءلات في الثقافة البحرينية – كمال الذيب)، وهو عوداً على بدء تأكيدٌ على أن المعاودة كان همّه ماذا يقول في معركة مصيرية بالنسبة له لا تنتهي مع الاستعمار الذي لم يكن سياسيا واقتصاديا وعسكريا فقط بل كان ثقافياً أيضاً.

رابعاً: المعاودة والنادي الأدبي والصحافة

لا يمكن تجاوز عام 1920 كلحظة مفصلية في تأسيس المبادرات الحديثة في البحرين، البلدية (أول مجلس بلدي) والمصرفية (أول مصرف) والثقافية (النادي الأدبي) في المحرق، وكان هذا هو النادي الأدبي الأول الذي أسهم في تأسيسه مجموعة من الشباب المتعلم والمثقف آنذاك. وقام هذا النادي بالعديد من الأنشطة الثقافية المتميزة والتي من بينها اشتراكه في المهرجان الأدبي الذي أقيم في القاهرة في عام 1927، بمناسبة مبايعة شاعر مصر الكبير أحمد شوقي أميرًا للشعراء. وأهدت البحرين ممثلة بالنادي الأدبي أمير الشعراء أحمد شوقي نخلة من الذهب تحمل رطبًا من اللؤلؤ تبرع بها سمو الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة، وبرفقتها قصيدة مطلعها:

من منبت الدر تسليم وتكريمُ
لشاعر اللغة الفصحى وتقديمُ

إلا أننا نستدرك هنا قبل أن نخطيء في تحديد دور المعاودة في ذلك، بالقول إن النادي الذي أسهم الشاعر المعاودة في تأسيسه هو النادي الأدبي الثاني الذي جاء بعد عقد كامل من تأسيس الأول أي في 1930 وفي المحرق أيضاً، وكان المعاودة من مؤسسيه مع مجموعة من الذين عادوا من بيروت بعد أن ألغت السلطات البريطانية بعثتهم كما ذكرنا. وقد أغلق هذا النادي من قبل الإنجليز لاحقا بعد خمس سنوات من تأسيسه.

وللمعاودة أيضا دور في تأسيس جريدة البحرين عام 1939 مع عبد الله الزايد.. وهكذا نجد في كل مسارات حياة الشاعر نضالاً دؤوباً لا يهدأ في مقارعة السلطات البريطانية على أكثر من صعيد.

خامساً: المعاودة والشعر

لو قدر لنا أن نقسم إلهام كل من العريض والمعاودة لتجربة الشعر البحريني المعاصر، لقلنا جاء إلهام بنية الشكل والإيقاع من العريض بريادته في التحول من العمود إلى (الشعرالحر) التفعيلة، وجاء إلهام بنية المضمون من المعاودة بشحن القصيدة بالبعد الإنساني والوطني المعاصر.

يصف مقدم ديوان المعاودة الأول الشاعر بقوله: «عبد الرحمن المعاودة شاعر عربي قح، نسبا وشعوراً، أدباً وتفكيراً، قلباً وقالباً، لحما ودما". (عبد الله الزايد – تقديم – ديوان المعاودة)

ويقول المعاودة عن ولعه بالشعر: (كان عمري تسع سنوات عندما تفتحت عيني على الشعر، فقد كان لوالدي مجلس سمر شعري وكنتُ أحضر أطرافاً من المطارحات الشعرية، وفي يوم كان صديق الوالد وهو على الباب مغادرا يقول مداعباً «لي صاحب كهوى الخريف أحبه يضربني» فقلت لوالدي: هذا الكلام مكسور ويجب أن يكون: «لي صاحب كهوى الخريف أحبهُ / ويضربني»،

فعلق الصديق: إنه إذن لشاعر. ولم تخلُ عائلة المعاودة من ملكة الشعر، فأخواله وأعمامه كانوا يكتبون الشعر النبطي كما أن جد أم أبيه هو الشاعر المعروف عبد الجليل الطباطبائي – (شعراء البحرين المعاصرون – د.علوي الهاشمي).

وهكذا نأتي إلى المعاودة شاعراً لا تقليلا من أهمية هذا الجزء في شخصيته، بل لنقول أيضا إن أهم ما يعلمنا إياه المعاودة في سيرته، هو أن الشاعر ليس بشعره فقط بل بكونه كائناً قلقاً في مجمل حياته، وكأننا نسمع المتنبي صادحا في مسمع العصر:

على قلق كأن الريح تحتي
أقلبها جنوبا أو شمالا

أو قوله أيضا:

أريد من زمني ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

إذ لو اقتصرنا على فهم الشاعر فقط حيث يكتب قصيدته وكأن حياته لا علاقة لها بشعره أو أن شعره لا علاقة له بحياته، أو كما يقال (موت المؤلف!)، لظلمنا الشاعر أو ربما ظلمنا الشعر. ذلك أن قلقاً وجودياً، كالذي كان ينتاب المعاودة في كل حياته وهو يتنقل بين مختلف ميادين الحياة مكافحا الاستعمار والجهل والتخلف لهو قلق لا يصدر إلا عن روح شاعرة. فمرةً نصف الشاعر بمعنى كتابة الشعر، ولكن مرة نصف الشاعر بمعنى الشعور، وعلى الأخص رهافة وحساسية هذا الشعور بمن حوله وبما حوله. وكأن المعاودة هنا كما يقول عروة بن الورد:

وإني امرُؤٌ عافي إنائيَ شركَةٌ
وَأنتَ امرُؤٌ عافي إنائكَ واحِدُ
أُقَسِّمُ جِسمي في جُسوم كَثيرَة
وَأحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

فلم يكن إناء المعاودة الفكري والفني والإنساني بل وحتى المالي – والتاريخ يشهد – إلا شركة بينه وبين الناس، كما لم يكن جسمه إلا قسمة في جسوم المعاناة والمعرفة والكفاح من أجل التقدم والتنوير.

لا ننظر إلى المعاودة بوصفه شاعراً بمعنى كاتب قصائد، بل بوصفه شاعرا بكل حياته حيث لا يستقر له قرار، ولا يقيم على ضيم كما تقول العرب، في وقت كانت فيه مواجهة البريطانيين تكلف الكثير، وهو في كل ذلك لم يتخذ طريق عنف أو مقاومة غير المقاومة

بالحياة والعلم والثقافة. ولا غرابة إذن أن يشير راصد مهم لتجربة الشعر البحريني المعاصر في البحرين بقوله: (إن الواقع الذي كانت تصدر عنه وتعكسه تجربة عبد الرحمن المعاودة فيه من الغنى والعمق والتعدد ما يفوق تجربة ابراهيم العريض. (شعراء البحرين المعاصرون – د.علوي الهاشمي).

ويصفه عبد الله الطائي في كتابه (الأدب المعاصر في الخليج العربي) بقوله: (شاعر الشعب في البحرين الذي نطق بآماله وعبر عن مشاعره تمثلت بشعره شخصية العربي في البحرين فهو ناقد لوضعه متذمر ومقاوم لاستعمار عرف ماذا يريد العامة وأدرك ملاحظات الخاصة فعبر عنهم بشعره.

ومن القصائد التي يقول الطائي إنها سبب نفيه ولم تنشر في أي من دواوينه:

(ضربتَ للحق فينا أروع المثلِ
ولم تبال بما لاقيت يا ابنَ عليِ
عليك منا سلام الله ما هتفتْ
ورقاء أو نمرد الحادي على الإبلِ
قد قمتِ في نصرة الإسلام متخذاً
من هدي جدك طه أقوم السبلِ
يا ابن فاطمة الزهراء حسبك من
مجد بأنك من أبطالنا الأُول
بِني أوال أراكم لا تعون ولا
تسعون بالصدق في قول وفي عملِ
عاث الأجانبُ في هذي البلادِ ولمْ
يروا أمامهم في القول من رجلِ
إذا الطغاة إذا ما زاد غيهمُ
يقومون بحد السيف والأسلِ
عهدٌ لنا كان بالأسلاف مزدهراً
فهل يكون لعود منه من أمل
عهد الصحابة والآل الكرام ومن
كانوا هداة الورى في السهل والجبلِ
يا قوم ما ساد إلا من تُسودهُ
مآثرٌ ألبستهُ أنفس الحللِ
إن لم تكن ذا مضاء في العزيمة أو
مزوداً بسداد الرأي فاعتزل
كونوا يداً يا بني البحرين واحدةً
وشمّروا كلكم عن ساعد العملِ)

ويقول الناقد د.علوي الهاشمي في كتابه «شعراء البحرين المعاصرون»: (إن ديوان «لسان الحال» يمثل أجمل ما كتبه المعاودة شكلاً ومضموناً). ويعتبر ديوانه الذي صدر قبل هذا، وهو «ديوان المعاودة» عام 1942 ثم «لسان الحال» عام 1952 هما معا ذورة تجربته الفنية والإنسانية في إنتاجه، وهما القسم الأول من شعره، ثم بحسب علوي الهاشمي القسم الثاني مسرحياته الشعرية المفقودة، ثم كتبه الأخيرة وأهمها «دوح البلابل» والتي هي بحسب الناقد الهاشمي، لا تمثل جزءا مميزا من تجربته حيث ارتبطت جودة شعره في الأساس بالحماس والتوقد في فترات المواجهة إبان فتوته.

ويقول المعاودة: (كان شعري دائماً في هوى الوطن والبحر والناس ومنه القصيدة التي تطفح بالحنين إلى البحرين، كتبها أثناء اغترابه في الكويت، وذلك بحسب تصريح الشاعر نفسه في لقائه مع كمال الذيب – (مساءلات في الثقافة البحرينية – كمال الذيب):

هو الماء لكن في لهاتي صابُ
فهل ليَ للبحرين بعد إيابُ
سلامٌ عليها ما استطالتْ بنا النوى
وما غرّنا من ذا الزمان سرابُ
فيا موطنا لو أستطيع فديتهُ
بروحي ولو عندي عليه عتابُ
ذرعتُ بلاد الله شرقا ومغربا
فما طاب لي إلا إليه مآبُ
أحبكَ رغم الحادثات فإنه
يلام الفتى في صده ويعابُ
طريحَ فراش أثقل الهم قلبه
فيا ليت حولي، من ثراك ترابُ
بني البلد الميمون ياخير معشرٍ
على البال أنتم لو يطول غيابُ
سأذكركمْ ما غرّد الطير أوهفا
الى وكره أو طار عنه عقابُ

سادساً: رحيل الشاعر

توفي الشاعر الرهيف في عام 2016 وكتب قاسم حداد يومها تحت عنوان (كلما مات عبد الرحمن المعاودة)، وكأن الشاعر في هذا العنوان اللافت هو مشروع موت دائم لأنه مشروع حياة دائمة.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن قاسم حداد يستبطن في مقالته هذه سخرية مرة من الذين يقتتلون على نسبة المعاودة إلى البحرين أم إلى حاضرة أخرى من حواضر هذا الخليج، ليذكرنا قاسم هنا بأن هذا الشاعر الذي كان دأبه الترحال في المكان داخلياً وخارجياً، حاملاً وطنه على ظهره كزوادة المسافر، لهو أكبر من المباهاة بالجغرافيا أو بهوية مدّونة في جواز السفر. في الحقيقة سيعود قاسم إلى تأكيد هذه المقولة في ديوانه (طرفة بن الوردة 2011):

كلما مات عبد الرحمن المعاودة (2016):
«عن 85 عاماً، توفي الشاعر عبد الرحمن المعاودة. الآن، سيتذكر أكثر من جيلين (بعضهم سيعرف لأول مرة) أن المعاودة كان شاعراً من البحرين. حيث لم تعد الذكرى (ولا المعرفة) مفيدة أو ذات أهمية للشاعر. الآن سيبدو ضرباً من الفولكلور أن يكون الشاعر ولد هنا أو نشأ هناك. فالغربة لا مكان لها ولا زمان. وسيكون الكلام عن جنسية الشاعر أو إعلان بطاقته السكانية نوعاً من تبادل أنخابَ مديحٍ ميتٍ أكثرَ موتاً من الفقيد نفسه. وسيبدأ من تلعب بهم شهوة الجغرافيا في الاجتهاد نحو إثبات ما يعتقدون، لكي يواصلوا اللهو بنا من خلال الفقيد. تماماً مثل لعبة الطباشير القوقازية حيث تقتسم الأمهاتُ جسداً حياً في خلافهن على ملكيته، لتنال واحدتهن شلواً ساخناً ملطخاً بالدم. الفرق هنا، أنهم سيقتسمون جثماناً.

لن نذهب إلى الرثاء. فعندما يموت شاعرٌ سنصاب بالحرج أنه مات قبلنا (بقليل). وسوف ينتاب الشعراء قاطبة، (الأحياء منهم إذا صحّ ذلك)، شهوة رثاء الذات. لكن ينبغي أن نذهب إلى ملامسة ما يثيره موت شاعر مثل عبدالرحمن المعاودة في حياتنا. فمن تشغلهم شهوة الجغرافيا، في تجربة هذا الشاعر، سوف يؤكدون ضمور حساسيتهم التاريخية، لأن أهمية تجربة المعاودة تكمن في طبيعتها التاريخية وليس في هويتها الجغرافية. إن أكثر من إقليم في هذه المنطقة يمكنه أن يزعم انتماء غير شاعر لدائرة نفوسه دون أن يمثل هذا حصراً حاسماً للهوية الإنسانية. وبقدر ما نستطيع في البحرين (الآن) الزعم (تاريخياً) أن طرفة بن العبد شاعرٌ بحريني، سيكون ممكناً الزعم (جغرافياً) أن عبد الرحمن المعاودة هو شاعر بحريني أيضاً. وإذا ذهبنا إلى مزيدٍ من المقاربات (لئلا أقول المفارقات)، فسوف يكون من باب التلفيق ليس إلاّ، كلامنا في مسألة أصول انتماء شعراء مثل خالد الفرج وعبد الجليل الطباطبائي وبن لعبون، (لكي لا نستطرد في ذكر أدباء وشعراء معاصرين أشهرهم غازي عبد الرحمن القصيبي)، إن لم نكترث بالأهمية الحضارية والفنية لشهادة دائرة النفوس والجوازات في هذا الشأن".

وسأختم هنا بقصيدة له يحاكي فيها المعاودة لحظة السجن الذي قضى فيه بعض الأيام بسبب حادثة اتهم فيها كما نُقل بالتستر على أحد تجار اللؤلؤ الصناعي، وهي قصيدة برغم قسوة الوضع فيها مشحونة بكوميديا سوداء لطيفة وملهمة. لم تكن روح المعاودة وهي تعاني تتضمن أية ميلودراما أو بكائية مبتذلة بل هي دائما قصيدة صديقة للحياة قادرة على السخرية حتى من مآسيها:

(فلا شيء إلا السجن ألقاه كالحاً
يعج بأنات بأنحائه تترى
يعج بأنات المساجين إنها
لأنات قوم من كؤوس الأذى سكرى
كأن هواء السجن ريح جهنم
ووحشته كالقبر ضقت بها أمرا
تمر بي الساعات أرقبها فإنْ
مضتْ قلتُ علّ الخير ألقاه في الأخرى)

عبدالإله العرب فنان الخط الباقي

عصمت الموسوي

رحل عن عالمنا الشهر الماضي فنان الخط العربي والتشكيل الفني عبدالإله العرب، زميل مرحلة الدراسة في قاهرة السبعينات. التقيته في شقة شقيقي الفنان التشكيلي عباس الموسوي، كانوا مجموعة من الفنانيين يدرسون الفنون وهندسة الديكور والخط وغيره أيام ذروة البعثات والمنح الدراسية المقدمة لأبناء البحرين في مختلف التخصصات، وكانوا مذ ذلك الوقت يجربون ابداعاتهم وحصيلة خبراتهم الأكاديمية في الرسم والخط والتشكيل ويشاركون بها في المعارض الفنية في القاهرة.

الطالب الهادئ الوقور الذي يتوارى خجلا حين يعبر عن نفسه، روى لنا انه وصل إلى قاعة المحاضرة ذات يوم مبكراً قبل غيره في أول أسبوع دراسي له في منتصف السبعينات، فقام بخط عدة كلمات على اللوحة، حين وصل الأستاذ والطلبة انبهروا بالمستوى الفني الرفيع الذي يمتلكه هذا الطالب الوافد القادم من البحرين.

طلب منه أستاذه في الأيام التالية أن يحل مكانه في غيابه. صار الطالب أستاذا على زملائه في الشهر الأول للعام الدراسي، ونال لاحقا استحقاق الجمهورية للطلاب الاوائل من الرئيس الأسبق أنور السادات في دبلوم الخط العربي، اما شيخ الخطاطين العرب السيد إبراهيم فقد وصفه بأنه «واحد من أهم الخطاطين الشباب الذين مروا على تاريخ معهد الخط العربي»، وقد ونشأت بينهما صداقة عميقة امتدت طويلاً. تتلمذ عبدالإله في القاهرة أيضاً على يد مجموعة من كبار الخطاطين، وأساتذة الزخرفة والتذهيب والمتخصصين في خط المصاحف، وتعرف خلال دراسته في مصر على النماذج الخطية المختلفة لكبار الخطاطين العرب والأتراك على مختلف العصور، كما اقتنى العديد من الكتب والكراسات والمجلدات التصويرية المهمة في هذا المجال.

قصة عبدالإله مع الخط بدأت حين كان صبياً صغيراً يجوب أحياء المنامة مدفوعا بنداء غامض لم يجد له تفسيراً، كان يلتقط قطع الفحم والألوان ويخط الحروف على جدرانها ويكسو مآتمها ولوحاتها وأعلامها، كان في التاسعة عشرة من عمره حين انبثقت التجربة البرلمانية الاولى في البحرين، بيد أنه كان مشهوراً ومعروفاً بموهبته الفنية اللافتة فأوكلت اليه هو وستة خطاطين آخرين مهمة خط دستور مملكة البحرين عام 1973.

بعد عودته من الدراسة في مطلع الثمانينات حصل على وظيفة خطاط ومخرج فني في قوة دفاع البحرين، فخط المراسلات الحكومية ومجلة القوة وغيرها، لاحقاً جاءته فرصة أخرى للعمل في منظمة الخليج للاستشارات الصناعية في الدوحة، اتجه عبدالإله إلى العمل التجاري طوال فترة الثمانينات، إذ كان الطلب شديداً على الخطاطين من قبل شركات الإعلان المحلية والأجنبية، في أعقاب الرواج الاقتصادي الذي عرفته منطقة الخليج، وقد راكم عبدالإله خلال هذه الفترة تجربة فنية وبعض المخرات المالية وظفها لتأسيس أول مدرسة للخط العربي عام 1990 بهدف إحياء الخط العربي والإرتقاء به، وجعله صنعة وفناً، وقد استقطبت المدرسة عدداً من خطاطي البحرين، كما تتلمذ فيها عدة مجموعات من الطلاب البحرينيين والعرب والأجانب الراغبين في إتقان حرفة الخط العربي، بعد المدرسة التي كانت حلم عبدالإله منذ صغره تفرق روادها شيئاً فشيئاً وانحسر

الطلب عليها ما اضطره لإغلاقها .

تفرغ فيما بعد للمعارض الفنية والرسم والخط والزخرفة الإسلامية والتذهيب والتشكيل، وكان بارعا في توظيف الحرف العربي في التشكيل، وحصل على أول جائزة تقديرية مرموقة في تركيا من قبل مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، واختير كعضو دائم في اللجنة الدولية لفن الخط بإسطنبول، وهكذا عُرفَ الفنان اقليمياً ودولياً، وطارت شهرته وأينعت تجربته، فتلقى المزيد من العروض للمشاركات في المعارض الفنية المختلفة خطاً وتشكيلاً وتصميماً وزخرفة.

بعد الرسم على الورق والأختام وطوابع البريد، وفي منتصف التسعينات اتجه للرسم والتشكيل على السجاد محققاً ابتكاراً جديداً وغير مألوف فنياً في بلدنا، وفي عام 2011 استعانت «شركة الندى للأزياء والهدايا» ببعض أعماله التي تمّ تحويلها وطبعها على الحرير واستخدامها للوشاحات والأزياء الراقية، وقد لاقت رواجاً كبيراً، وأضافت بعداً وقيمة فنية لأعماله القديمة، أو المتحصلة على الجوائز.

ويجمع الفنانون البحرينيون على أن عبدالإله يعدّ امتداداً لاساتذة الخط العربي الكبار الذين سطروا ابداعتهم في الخط العربي على اختلافه، وقد تلازمت الموهبة مع الدراسة المتخصصة مع الإطلاع الدائم والتجريب، إضافة إلى التفرغ التام والممارسة الطويلة الممتزجة بالثقافة والمعرفة الادبية وبتراث الشعر العربي.

كان الروائي والكاتب حسين المحروس ينوي كتابة سيرة الخطاط عبدالإله، إيماناً منه بأهمية هذا الفنان في مسيرة الفن البحريني، إلا أن المشروع تعطل بعد مباغتة المرض للفنان ، حيث فضل الانـزواء والعزلة في السنوات الأخـيرة، قانعاً بحياة بعيدة عن التجمعات والأضواء، رغم أنه كان يزمع إعداد بحث شامل عن الخط العربي القديم منذ 300 عام في البحرين وخارجها، وقد جمع مادته وصوره ومستنداته وظل ينتظر الفرصة لإطلاقه.

ولم يسع عبدالإله عرب لحياة مديدة أو طموح مادي كبير وقنع بما تجود عليه مبيعات لوحاته من مردود متقطع وغير ثابت بعد أن اكتسحت التقنيات الإلكترونية الحديثة، أغلب الفنون ونافست فن الخط، بل وسحبت البساط والرزق من أيدي الفنانين والمحترفين.

الفنان الرقيق الهادئ المثقف الملتزم المخلص لموهبته وعمله وابداعه ظلّ يقول: «لا أريد من من الحياة شيئاً سوى قصباتي وألواني وسجائري وركن صغير ومريح أمارس فيه عملي بهدوء».

أغرم عبدالإله بالأدب العربي الكلاسيكي، وبالمتنبي وأبي نواس والجواهري وأبو العلاء المعري، حتى في أيام مرضه كان الكتاب رفيقه وسلواه، وإذا سئل عن صحته اجاب: «تعجبين من سقمي/ صحتي هي العجب»، في اشارة إلى قصيدة أبي نواس الشهيرة، «حامل الهوى» .

كنا نتمشي مع زميلنا عبدالإله في شوارع القاهرة، وكان يرصد الأخطاء في اليافطات الإعلانية وأسماء المحلات، ويردد أن مصر هي أم الخطاطين العرب فكيف يجورون على الخط العربي؟ إذ لا شيء يضير هذا الفنان كرؤيته لكلمة عربية معوجة أو متجاوزة لأصول الخط العربي الأصيل بكل انواعه.

كثيرة هي الأوسمة والجوائز التي حصل عليها عرب وكان جديراً بها، إلا أن إنسانيته وحسه الفني الراقي وتعامله الإنساني وكرمه الذي بلا حدود يظل عصياً على النسيان. أهدى عبدالاله العديد من أعماله إلى اصدقائه وأهله وزملائه وتلامذته وأبناءهم، اشتغل لهم وساعدهم ودرّبهم وصمم أغلفة كتبهم ويافطات مشاريعهم وبطاقات أفراحهم بالمجان وبلا مقابل.

لم يندم عبدالإله على شيء في حياته بقدر ما كان نادماً وحزيناً على إغلاق مدرسة الخط العربي وهي مشروعه وحلمه الذي اشتغل عليه طويلا وتأمل منه الكثير وخرج منه بخسارة مالية ومعنوية، وكان يقول: اننا يجب ان نقتدي باليابان التي ما زالت تعتني بالخط الياباني الأصيل وبالأدوات القديمة نفسها باعتباره جزءاً من تراثها وحضارتها.

توزعت أعمال عبدالإله على عدد من المتاحف العربية في بلدان الخليج، واهمها لوحة "الحق يعلو" وتكوين الحرف «ح» التي فازت بالمركز الأول في بينالي القاهرة عام 1988، ثم احتلت مكاناً في متحف البحرين الوطني لاحقاً.

إن سيرة عبدالإله جديرة بأن توثق من قبل معاصريه ومجايليه وزملاءه، أما أعماله القديمة والحديثة فلابد وأن يحتضنها معرض فني دائم، اعترافا بموهبته وتقديرا لجهوده وابداعه في تطوير مهنة الخط العربي الأصيل.

«الحق يعلو».. تأملات في لوحة عبدالإله العرب

جعفر حسن

مثلَّ الخط العربي مجالاً خصبا للإبداع، خصوصا مع معرفتنا بالموقف الذي ساد في الثقافة العربية حيث يشير إلى تحريم رسم الشخوص والحيوانات، أو نحت ما يمكن أن يدل عليها، فاتجه الفنان في العالم العربي مع بدء انطلاق دولته منذ عصر الرسول فيما بعد إلى الخط العربي يجوده وينفخ فيه من روح الابداع، وللمتتبع أن يذهب نحو تجليات الحالة الابداعية في الخط الذي كان بالتأكيد يتطور نتيجة حاجات المجتمع الذي بدأ في بناء الدولة ثم ارتقى من الدولة العربية الاسلامية إلى ما بات يعرف بالامبرطورية العربية الاسلامية.

نغمات على وتر الكوفي

لم تكن نشأة الخط العربي واضحة المعالم، بل اختلف على اصوله الكثير من الباحثين عبر التاريخ، ويبدو أن للخط العربي اسلافا متعددة من المسند إلى الارامي التي انبثق منها الخط الكوفي بأنواعه، وهذا الخط العريق يحمل صبغة تاريخية حيث ينسب إلى دول وبلدان وممالك وحقب تاريخية مهمة في الأمة مثل (الكوفي المملوكى) و(الكوفي الأيوبى) و(الكوفي الفاطمي) و(الكوفي الأندلسي) كم ينسب إلى إقليم مثل (الكوفي النيسبوري) و(الكوفي القيرواني) وغيرها من الكوفي المتعارف عليه مثل (الكوفي المورق) و(الكوفي الشطرنجي) و(الكوفي المظفور)، ويمكننا عدّ ثمانية عشر شكلاً له ويبدو أن هذا الخط لم يستوف باعتباره قابلا للتطور في فنون الكتابة العربية، ومن ثم جاء بعده خط النسخ وتلاه خط الثلث إلى الخط الديواني ومنه إلى الديواني الجلي الذي هيمن على هذه اللوحة التي حملت عبارة مكتوبة (الحق يعلو).

والخط العربي يعتمد فنيًا وجماليًا على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة، وتُستخدم في أدائه فنيًا العناصر نفسها التي نراها في الفنون التشكيلية الأخرى، كالخط والكتلة والمساحة اللونية، ليس بمعناها المتحرك ماديًا فحسب بل بمعناها الجمالي الذي ينتج حركة ذاتية تجعل الخط يتهادى في رونق جماليٍ مستقلٍ عن مضامينه ومرتبط معها في آن واحد.

الخط حين ينهمر

في لوحة الفنان عبدالإله العرب: «الحق يعلو»، نجد تلك العبارة التي تعطي منظوراً جمالياً يذهب في اتجاه حركة العين التي تتخيل العبارة وهي تطفر من أعلى اللوحة بانفتاح نهايات حروفها في ألف ولامين تاليتين كأنهما تذهبان إلى خارج اللوحة، متخذة البياض الصريح ما يملأ جوف الحروف في ثخانتها التي تقترح ان القصب لم يدخل في تشكيلها إلا ربما في البروفات الاولى، ولكن امتدادها يحتم استخدام تقنيات مختلفة في تنفيذ هذه اللوحة، خصوصا إذا عرفنا أن حجمها يوازي طول الانسان العادي، وتبدو لنا تلك الحواف في بحرٍ من لون احمر صريح كأنها مشرشرة نوعا ما أو متماوجةً.

وتترابط عبارة الحق يعلو مع تلك الحركة التي تبين للرائي انها تنهض من جديد من خلال بروزن يقترح على الرائي أنها اختراق امتداد الحروف لباطن اللوحة بشكل يوحي بالشدة والقسوة متجهة إلى الاعلى، كما توحي للناظر كونها تعبيراً منعكسا للفظ الجلالة (الله) ولكن بتكرار لامها المدغمة، ذلك الخط المشرشر الذي يتبين في اللوحة ربما أوحى لنا بحافة النصال المتكسرة من الصراع الذي يبدو أن الحق يخوضه في اتجاه النهوض نحو تموضعه في وسط الصورة، وهي خاصية ممكنة في الخط الديواني والجلي منه على وجه الخصوص حيث كان يمتلئ بالزخارف المناسبة للأعمال الفنية، ولكنه في خط تطوره تحوّل من خط تتداخل فيه الحروف بحيث تزيد في بعض الأحيان من صعوبة القراءة الناتجة عن استدارة حروفه وتداخلها إلى ليونة الخط وانسيابه وتخلصه من الزوائد والتداخل وربما بسبب ذلك سمي بالجلي.

ظلال لما لا ظل له

لا تتركنا اللوحة نرتاح إلى القراءة فقط، إنما تذهب بنا إلى ما هو ابعد من ذلك، فالحروف المفتوحة الآخر على البياض الخارج من اللوحة الذي يوحي بأن الحق لا يمكن حصره في مكان ما أو زمان ما وإنما يمتد لتطفو خارج اللوحة التي تعيد امتصاصه بعناصرها التشكيلية، فتتضافر هذه الحركة البصرية مع البياض الذي يوحي بالسلام والطهارة، ولعل احاطته بالأحمر الناري تماماً يوحي بالقوة أيضاً، إن حركة النص البصرية تتناقص تماماً مع حركة بقايا الأحرف الممتدة في الركن الأيسر من الصورة، والتي توحي ببقايا امتدادات الحروف وكأنها حراب مشرعة في جهة مناقضة للنص كأنها تقلبه.

هل نحن أمام معركة ما على وشك أن تبدأ بين الكلمات وبقاياها، ترى هل هي امتدادات الألف واللام والام الثانية في كلمة يعلو، وبالتالي نحن في مأزق فهم حروف ممتدة إلى الأعلى ثلاثة فقط بينما هناك اربعة تكمن في الخطوط السفلية، أم ترى عمد عبد الاله العرب إلى استدارة الواو في كلمة يعلو ليوحي لنا بهذا الامتداد، ولكنها تمتد ولا تخرج منفتحة على نهاية الإطار كما بقية الحروف الممتدة كما القاف في استدارتها، بينما لا تتناسب المسافات المتروكة بين الامتدادات السفلية والحروف العلوية المتشكلة في جملة "الحق يعلو".

أم ترى انها مسألة توازن بصري، بين العبارة وامتدادات ما أسفل الصورة، تلك الامتدادات الغامضة التي لا يستبان إلا شرشرتها ومشاركتها الخط في خصائصه، وربما لذلك امتدت الألف تشقّ طريقها لكسر هيمنة اللون الأحمر على مجمل المساحة البصرية متجهة نحو الأسفل لتخرج عن التوازن المألوف في الخط العربي لتبرز جماليات مغايرة له يمكن إدراكها بصريا لتقود العين صعودا نحو العبارة.

إن هناك توازناً بصرياً بين عبارة الحق يعلو وبين الزوائد التشكيلية التي ربما أيضاً تعبر عن تخلص خط الديواني الجلي من زوائده التي كانت مشتبكة معه، ترى هل نحن أمام مجرد معركة الخط ذاته في سبيل تحرره، ماذا يمكن أن تضيف العبارة هنا إلى جماليات الخط في ذاته، إنها دعوة للتأمل.

من يمنحها عمراً أجمل؟

لا يحتاج أي عرض مونودراما بطلته أنثى إلى التفكير مطوّلاً عن القضية التي ستعرض عبرها. تضيق التصورات في التخمين، فهذا مخلوق إشكالاته مقدرة عليه منذ حكاية خروج آدم من الجنة، وما لحقته من آثام مجانية تحيل إلى الإدانة غالباً، تكوينه النفسي/ العاطفي والجسدي -بالتأكيد- يشكل منافذ يسهل الدخول منها وإليها، إلقاء اللوم عليها وتحميلها أي تبعات قائمة أو قادمة يسير ومتوفر دائماً، والمنفذ إلى دخوله رهافة الخلق؛ لذا فإن أي مشكلة تسرد لها علاقة بطبيعة هذا الجنس، وعلاقته الآخر به، والعكس.

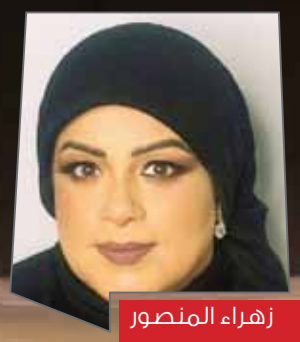

زهراء المنصور

ولـو حاولنا في استعراض سريع لمسرحيات مونودراما بطلتها أنثى، ستتولى مخيلتنا مسؤولية تخمين المعاناة بمجرد بدأ الحدث، لأم كل معاناتها جاهزة ومتوفرة، رغم أن كل البشر – يقيناً – يعانون من أشياء مختلفة وبنسب متفرقة، لكن ما أسهل أن تعلق الهموم الإنسانية كلها في جنس الأنثى، لأنه -ببساطة – قادر على التعبير عن كل هذا، وأكثر. لذا تعبر بطلة عرض المونودراما "وجود"، الممثلة "ريم ونوس"، عن معاناة "ما"، لا يدرك المتلقي ماهيتها منذ البداية، عبر تجسيد حالات متتالية تعبر عن آلام؛ هل هي فقد؟ هل هي فراق؟ معاناة مستمرة؟ ألم جسدي؟ نفسي؟ لا يستطيع أحد أن يجزم طبيعة المعاناة، لأن البطلة تجول هنا وهناك في جمل متفرقة، تخاطب بها شخوصاً غير مرئيين، وتخاطب الغائب الذي يرقّ قلبها له: "هكذا صنوان، قد قُدّا من الجَلَد، اثنان كالحبر والكتابة، ظلان في حقيقة البلاء والابتلاء والمساواة. غير أني، وحدي، أضيء بتأويل الرؤى. فمتى، أيها الكون، أفكّ القوافي، أعبر نحو مصيري مثل سواي". يميز من بين "المخاطبين" التنويع في حدة الصوت، ورقّته، مع تناغمه أدائياً في المساحة المخصصة لحركة البطَلة.

قدّم هذا العمل المخرج جمال الغيلان، الذي عمل على خلق رؤية جديدة لنص الكاتب العراقي د.كاظم مؤنس، هيّأت العرض لمستوى من الغموض الكافي لإثارة الفضول وإرباك المتلقي وقتاً لا بأس به من وقت العرض الذي لا يزيد عن النصف ساعة، فاختار أن يدمج الجمهور مع البطلة، لذا تخلّى عن العلبة الإيطالية المعتادة، ودفعه لوسط الحدث حتى يتمازج مع الخطاب الذي توجهه للغائب/ للجمهور، وهو أيضاً تكوين سينوغرافي يجعل من المتفرجين جزءاً من اللعبة في العرض. فلمن ستوجه البطلة، مجهولة الاسم، عتابها وعذاباتها؟ كيف سنشعر

بحبات العرق الندية على الجبين وصرخات الحرقة على الوجع المكتوم، واهتزازات الخوف من تخطي الحدود حتى لا تظهر صفارة الإنذار المادية في العرض، والمتوافرة في الحياة بكثرة، وبصور متعددة، تمارس بحق الأنثى؟ ثم كيف عمل العرض على الإمعان في تمويه قضيته عبر السينوغرافيا التي اعتمدت على إفراد المراحل التي تمر بها البطلة من خلال المؤثرات البصرية والموسيقى الحية، المتمثلة في صوت الأذان، أو تراتيل الكنيسة، أو أذكار الصوفية، لئلّا تحسب على طائفة، أو فكر، أو توجه، فتحصر الفكرة وتموت في وقتها!

واشتغل المخرج على إعادة تشغيل النص برؤيته، بدءاً من العتبة الأولى للتلقي، فحوّله من "حين يعود الإنسان إليك" إلى "وجود". والحقيقة أن العنوانين دالّان وحاملا أوجه؛ الأول مال إلى الفلسفة والتجريد، والثاني وضع عنواناً مطلقاً لا يستدل على مضمون العرض من خلاله، ليقع المطلع في حيرة فكرة النص/ العرض. فتجاوز الغيلان كشف الموضوع منذ البداية في المخاض والولادة وموت الطفل الذي كشف عنه المؤلف في كتابته للنص: "صوت طفل يرى النور للمرة الأولى"، تتبعها أغنية تراثية "دللّول يا الولد يا ابني دللّول"، وهي كما تذكر المصادر ترنيمة الأم العراقية لولدها قبل النوم، أي لأنها تخص جغرافية وبيئة معينة ما، حتى وإن تناسجت الثقافات المختلفة، فكيف إن كانت متقاربة ومتشابهة؟ ولو كان المخرج قد "نفّذ" النص كما هو حسب ترتيبه، فسيكشف هوية الشخصية/ المكان/ الحدث باعتبارها علامات دالـة، ولانجلت حالة الغموض التي تتبعها المتلقي حتى الوصول للقسم الرئيس من العرض.

لم يعطِ العرض أيضاً وجهة نظر ملموسة في سرد معاناة بطلته، استعرضها ومضى؛ لا إشارة لتجريم، أو تعزيز لنصرة ما، أو حتى تحديد هوية الطرف الآخر غير المرئي، فقد يكون ذكر على اعتبار أن الشخصية أنثى، أو مجموعة معادية لأي سبب، أو أن المجتمع الذي قد يرمز له بالقيود وصفارات الإنذار التحذيرية حينما تتخطى الحدود. إذاً فالعرض يلقي بتبعاته على المتلقي نفسه في التحليل وتقييم الحالة، وأيضاً إصدار الحكم! بعض السرد يليق به أن يرمي ما في جعبته ويمضي، حتى تظل شائكة في الذهن، وهنا الحدث لا شائك ولا غريب؛ لأنه

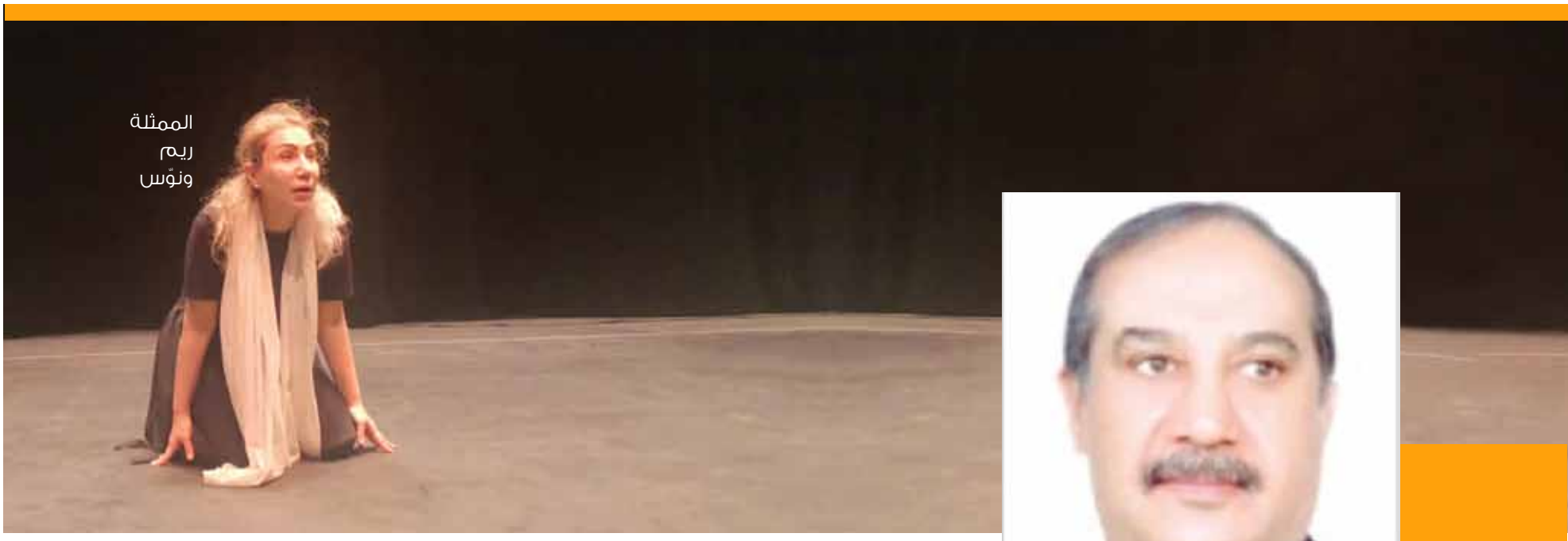
الممثلة
ريم
ونوّس

الكاتب كاظم مؤنس

يحدث في كل وقت، وليست فكرة فقدان الطفل ومعاناة الأم إلا مستوى أولياً على مد النظر الذي تحدّه أطر حدود البطلة على الأرض وفي محيطها، لكن العرض –بشكل ما– يرمينا في بحر آخر غير هذا الذي نحن فيه، عبر إشارات وحركة الممثلة:

" تنهض بهدوء، تنظر إلى مصدر الضوء، تعود بنظرها للجمهور، ثم تعاود النظر إلى مصدر الضوء مرة أخرى، في محاولة لمشاركة الجمهور في تفسير سجنها داخل دائرة الضوء

السيدة: (بهدوء)

هكذا يتربص بي الموت، يتربص بي مرتين... أموت هنا.

(تشير إلى الدائرة)

أو أموت هناك!"

على صعيد التجسيد، وعلى الرغم من أن المعاناة جسّدت للأنثى التي تفقد وتفارق؛ حبيبةً، وزوجةً، وأماً، إلا أن أداء ونّوس يظهر الجسد الأنثوي كأداة من أدوات التشخيص "الإنساني" الصميم، وهي إشارة مهمة إلى أن المعاناة لا تختص بجنس عن آخر، حتى مع الإشارة لوضع الأم الحائرة/ الثكلى، عدا أن كل ثقل المونودراما أساساً يتحمله الممثل الواحد، الذي يجب أن يتقن الأداء وشدّ الانتباه حتى يحظى بالمتابعة وإيصال العمق الذي أراده، ببساطة مناسبة، دون أن يتخلل هذا سأم مونولوج طويل ومبهم. ولا شك أن العرض محظوظ بوجود ممثلة مجتهدة تبذل كل طاقاتها من أجل خدمة هذه الشخصية/ الشخصيات، التي سبق وأن قامت بأدائها في عروض مسرحية بحرينية، وعرض "وجود" هو تجربتها المونودرامية الأولى التي تستعرض فيها جزءاً من طاقتها المخلصة للتمثيل وحده، وتسيطر على الخشبة؛ وحيدة، وقادرة.

وفي المشهد الرئيسي الذي يكشف سر المعاناة من الذين "نصبوا مشنقة"، ومقاومتها العنيفة للآخر/ الآخرين غير المرئيين، ولا المسميين، والمتحكمين في حياتها ومصيرها دون ظهور مادي، تتجلى "ونوس" في أداء مبهر صامت، وهي متربعة على الأرض، تصدر الشعور بفقد "الولد" بفجاعة ملموسة، ومكتومة، لا تملك إلا التفاعل معها، ومع إنسانية حالتها التي فسرت كل هذيان الحالات السابقة من المنظور القريب على الأقل. وعلى الرغم من أن تقديمة العمل تذكر عن العرض أن فكرته الفلسفية في التعلق بالأمل، وإنسان اليوم المشغول بحيرته وعذابه، و"الدعوة لتحرير ذاته، ومناشدة للمساواة، وتحرير نصفه الآخر من كل المتحجرات القديمة"، إلا أن الجمل المشغولة بعناية تحدّ جمال النص والعرض معاً، اللذين يحضّان على التأويل وإعمال الفكر في قصدية المؤلف والمخرج معاً، أو منفردين، وليس أجمل من عرض نغادره فيشغلنا بما رمى إليه، ونختلف في رؤيتنا له، وأن نستجمع أن ما حصل في البداية مقيدة الأطراف، والتي تنهك فيها الممثلة حتى تفك أسرها، تعني أنها في مشهدها الآخير سوف تمد نفس اليدين لطرفين "آمنين"، وهذا يدعو إلى السكينة والاطمئنان، وأن نهاية المقاومة ستؤتي أُكُلها، وإن طالت.

المخرج جمال الغيلان

ضوء على رحلتي مع الكتابة

تجربة حياة، تجربة نار ورماد.

عندما فتحت عيني على العالم، وجدت الحرف، يأسرني، يلاحقني، يغويني بفتنته المستبدة. كنتُ صبيًا خجولًا، حينما كنت أراقب أخي الكبير، اليساري النقي المتحمس يعود من العمل ويقرأ ويقرأ بدون توقف طوال الليل. لا أدري هل هو من زرع بداخلي الحرف دون أن يشعر، أم أن أحدًا ما لا أتذكّره أو أعرفه. بعد سنوات من القراءة والكتابة بحثت عمن علمني عشق الثقافة كي أقتله فقد أحال حياتي الى جحيم فلم أجده. مرة حينما كنت في الرابعة عشر من عمري، كنتُ جالساً حتى ساعة متأخرة من الليل، فجاءني والدي وسألني ماذا تفعل في هذا الوقت. قلت له: أكتب. ماذا تكتب؟ قلت له: أكتب شعرًا. فهزّ رأسه وهو يقول: لا يا بني، درب الشعر صعب ومؤلم وعذاب. حينها ظننت أن والدي العجوز لا يعرف شيئًا فتجاهلت كلامه. وبعد سنوات اكتشفت أن ما قاله هو عين الصواب، فكتبت:

عبدالحميد القائد

دَربُ الشعرِ عذابٌ، حَسَكٌ ..
وآخره اكتئَابٌ
قَالَهَا أبي حِينَما كُنتُ صَغيراً
أنتَ اخترتَ أن تَحْترق
قُلتُ ما أشهَى الرَمَاد

كان يومًا سعيدًا أو مشؤوما، لا أدري، حين جاء الحرف يدقُ بابي، كان ذلك عندما كنت في سن الثامنة أو التاسعة عندما أنهيت كل كتب الأطفال في مكتبة المدرسة في عام دراسي واحد وكان عددها حوالي 100 كتابًا تقريبًا. كنت حينها في الصف الثالث ابتدائي، لا أدري من حرّضني أو أغـواني، صدقوني لا أعـرف. عندما بلغت الصف السادس ابتدائي أصدرت مجلة أسميتها «الثورة» كانت عبارة عن ست أو ثمان صفحات، تحتوي على رسومات وقصائد وحكايات حيث كنت حينها أهوى الخط والرسم والكتابة. حسب ما أذكـر أصدرتُ عددين ثم حذرني استاذي اللبناني من خطورة ما أكتب وأعرب عن قلقه على مستقبلي، فتوقفت. كان ذلك في فترة الإستعمار الإنجليزي.

أذكر في نفس السنة، أي الصف السادس ابتدائي، سأل نفس المدرس التلاميذ عما يريدون أن يكونوا عندما يكبرون. كثير من الطلبة تراوحت أجوبتهم ما بين «طبيب» أو «مهندس» وغير ذلك وعندما جاء دوري قلت بفخر «أريد أن أكون صحفيًا» فضحك التلاميذ ولكنني لم أبه بضحكهم. والحمد لله أنني لم أصبح صحفياً فهي مهنة المتاعب والبهدلة. هذه كانت ربما مرحلتي المبكرة للالتقاء بالحرف.

بدأت المرحلة الثانية، عندما صدرت صحيفة الأضواء عام 1965 بدأنا أنا وصديق عمري علي الشرقاوي – الله يمنّ عليه بالصحة والعافية– في ذلك الزمان نتردد على مكتب الصحيفة على أمل أن ينشروا لنا، وفي كل مرة كنا نكتب شيئًا: شعر، قصة، مقال، مسرح. في إحدى المرات قال لنا مدير الصحيفة الكاتب والقاص المعروف محمد الماجد – طيب الله ثـراه– مـاذا تريدان أنتما، في كل يوم تكتبون شيئًا، يجب عليكما التركيز والتخصص ونصحنا بكتابة الشعر لأنه رأى في ذلك الوقت أننا أقرب إليه. وكان ذلك. كانوا ينشرون لنا في باب مع القراء، حتى جاء يوم توجّهت فيه الى مكتب الصحيفة ودخل المرحوم محمود المردي رئيس التحرير وأخذ بيدي وأدخلني مكتبه. وسألني: ماذا لديك هذه المرة؟ ورأيته يقرأ القصيدة التي كتبتها وهو يهز رأسه علامة الإستحسان، وقال لي: نعم ...نعم. وسألته هل سوف تنشرها لي؟ فقال: طبعا وفي برواز خاص مع صورتك. كان يوما شعرت فيه أنني ولدتُ من جديد، وكدت أرقص فرحًا.

في عام 1968 تعرفت على الشاعرين قاسم حداد وعلي عبدالله خليفة وكانا قد قطعا شوطًا في كتابة الشعر ومن الشعراء الشباب البارزين. استفدت كثيرًا من تجربتهما ومن توجيهاتهما حتى بزغت اسرة الأدباء والكتّاب الى الوجود في عام 1969، كنا مترددين أنا وشلتي الأثيرة (الشاعرين على الشرقاوي ويعقوب المحرقي) في الإنضمام لأننا كنا نخشى أن تجاربنا لم تنضج بعد، ولكنهم شجعونا وبقوة على الإنضمام بعد التأسيس مباشرة.

مع انضمامنا الى أسرة الأدباء بدأنا في سباق مع الشرقاوي والمحرقي في مسيرة التطور الإبداعي وفي كتابة الشعر الحديث، سباق ودي حميم. كانت فترة ساعدتني كثيرًا في تطوير أدواتي وتجربتي. كانت فترة كنت تائهًا فيها بين الشعر التقريري المباشر بسبب انتمائي الأيدلوجي وبين الشعر الحداثي الذي يرتكز على الرؤى والصور الفانتازية والدهشة والتفكيك. لذلك صدر ديـواني الأول "عاشق في زمن العطش" عام 1975 خليطًا بين الإسلوبين. هذا الديوان اشتمل على قصيدة "رسالة مسجونة" التي اشتهرت باسم "حبيبتي" التي قدمتها فرقة أجراس من ألحان الموسيقار الكبير المرحوم

مجيد مرهون وغناء الفنان المرحوم فوزي الشاعر.

بعد ذلك مرت عليّ فترة فتور، فقدان حماس للكتابة، عدم الإقتناع بما أكتبه، وساءت الحالة بشكل أكبر مع سقوط الإتحاد السوفيتي، ذاك التفكك المدوي الذي صدم الكثير من المثقفين ومن هواهم كان يساريًا ففقدت الرغبة كليًا تقريبًا في الكتابة والإيمان بالكتابة فأغرقت نفسي في العمل، العمل المصرفي الذي امتص كل طاقاتي لكنني لم ابتعد عن القراءة يومًا وأنا الذي هجر القلم أو هجرني. مرت سنوات طويلة قاربت العشرين عامًا وأنا على هذه الحالة فانسدت شرايين التعبير والإبداع بداخلي، مما تسبب في مروري بحالة اكتئاب طالت لفترة ليست قصيرة. شعرت أنني أختنق فعلًا. داخلي أنهارٌ وبراكين وانفجارات ومدن تحترق وأحلامٌ فقدت وجهها وملامحها.

فجأةً ودون ميعاد انفجرت الينابيع المسدودة وانتثرت الحروف على الورق وأصبت برد فعل جعلني أكتب دون توقف. لم تكن كتاباتي بالجودة التي انتظرتها أو المستوى الذي أطمح إليه في البداية بعد ذاك التوقف الطويل. كان القلم يصبّ حبره ببطء. لكن مع الإصرار ومواجهة التحدي الكبير بدأت أتطوّر بسرعة وأصدرت في عام 2003 ديواني الثاني "صخب الهمس" والذي ترجمته الى اللغة الإنجليزية في نفس الكتاب. كانت هذه المرحلة الثالثة من تجربتي. مرحلة العودة للكتابة ولكن هذه المرة دون تراجع. في عام 2007 أصدرت انطلوجيا الشعر البحريني (اللؤلؤ وأحلام المحار). وهذه الانطلوجيا هي عبارة عن ترجمة لقصائد مختارة ل 29 شاعرا وشاعرة بحرينية الى اللغة الإنجليزية وطُبعت ونُشرت في الولايات المتحدة بتمويل من مركز الشيخ ابراهيم ودعم من الشيخة مي آل خليفة رئيسة هيئة الثقافة والآثار.

في عام 2010 أصدرت ديواني الثالث "غربة البنفسج" وأيضا باللغتين العربية والإنجليزية. وهذا الديوان يشتمل على قصيدة "قمر البلاد" الأغنية التي قدمتها فرقة أجراس، تلحين وغناء الفنان الكبير المرحوم سلمان زيمان، وكتبت يوم وفاة المناضل الكبير احمد الذوادي. استمر هذا الدفق القوي معي حيث أصدرت ديواني الرابع "ما عاد شيء يهم" عام 2015.

أنا أكتب الشعر منذ زمن طويل، بدأت بشعر التفعيلة في ديواني الأوّل "عاشق في زمن العطش". ثم جرفتني الأمواج العاتية نحو تخوم بعيدة في الروح وفي القلب والجسد. مررت بتجارب حياتية كثيرة وأحيانًا مريرة صقلتني، وكانت لشهوتي المُغامرة دورها في دخولي عالم التجريب والغرائبية للبحث عن حرف مختلف ومعنى مختلف أمام هذا الزمن السريالي في تشكيلاته، والعبثي أحيانًا في احداثياته، والحوادث اللامعقولة التي دخلتُ فيها وكانت النتيجة حرف مجنون، يبحث عن نفسه، والإستعانة بالموروث بنظرة جديدة وفهم جديد متقدم. أصبح الشعرُ بالنسبة لي مثل تأريخ لحظاتي بأحزانها وهزائمها وافراحها وانتصاراتها وبكل تلاوينها المختلفة شعرًا. وأصبحت قصائدي بمجملها تجسد لحظاتي اليومية بكل جرأة وشفافية ودون مواربة. يمكن لأولئك الذين يتابعون صفحتي على الفيس بوك ان يشهدوا على ذلك فقد أصبح هذا البرنامج عبارة عن سبورة أنثر عليها حروفي يوميًا.

كانت المرحلة الرابعة من تجربتي الإبداعية مغايرة حين توجهت الى السرد كنافذة اضافية للتعبير وليس بديلًا عن الشعر حيث أصدرت روايتي الأولى "وللعشق رماد" عام 2016. كانت كتابة رواية حلمًا من أحلامي وتحققت اعقبتها بالرواية الثانية "طريق العنكبوت" عام 2019. في عام 2020 وفي ذروة انتشار فيروس الكورونا حاولت تاريخ الحدث برواية اسمها (كان الوقت مساءً "حكاية حب في زمن الكورونا"). ربما على خطى الكاتب الكولمبي الكبير غابرائيل جارسيا ماركيز صاحب رواية "الحب في زمن الكوليرا" لكن روايتي مختلفة تمامًا مجرد تشابه جزئي في العنوان. هذه الرواية تنتظر النشر، وهي تتحدث عن حكاية حب في زمن الكورونا بطلتها طبيبة تونسية، والبطل رجل مهووس بالزمن ويتخيل أنه يسمع صوت الزمن، ويذهب الى الربع الخالي ويتخيل أنه يسمع صوت الماضي البعيد، قوم عاد وثمود وهم ما زالوا خالدين تحت أكوام رمال الربع الخالي. حكاية حب في قمة الفانتازية والغرائبية في زمن هذا الوحش المقيت: الكورونا.

في الوقت الحاضر أكتب روايتين في نفس الوقت تقريبًا ربما لشعوري أن ما تبقى من الوقت قليل.

لدي بعض المخطوطات التي تنتظر النشر منها ديوان "دهشة الرذاذ" وهو مجموعة من شعر الومضة قدمته الى هيئة الثقافة والآثار للطباعة وبانتظار فرج الميزانية. ولدي أيضا ديوان جاهز للطباعة اسمه "سر ما رأى" بالاضافة الى كتاب "ضوء للعتمة" ويتالف من مجموعة من مقالاتي ومجموعة قصصية اسمها " على صدرها التصق كتاب" وكلها تنتظر النشر أو تبحث عن ناشر.

انها رحلة الحرف التي لا تنتهي.. رحلة تشبه الصلاة، جزءًا من تقاويمي ولحظاتي .. الكتابة التي أصبحت بمثابة التنفس الذي دونه لا أحيا!

صدمة الغياب

عن دار السكرية للطباعة والنشر والتوزيع في القاهرة، صدر للشاعرة والقاصة البحرينية نعيمة السمّاك ديوان «نهارات فاطمة»، وهو الإصدار الرابع للشاعرة، بعد «طقوس امرأة – شعر، ٢٠٠٥»، «أيام خديجة – قصص، ٢٠٠٨ ، «سأحدثكم عن مريم – قصص – ٢٠١٧»، ومن الديوان الجديد ننشر هذه القصيدة.

نعيمة السماك

فرحتُ بكن
أنا أم لثلاث إناث
لكن أبيك غادر
فحطّ بقلبي حزن
يفوق العشرين عاما التي كنت
بعده لم أجد صدراً للبكاء
يجنُ عليّ الليل
لا شيء سوى الحزن
الليالي تطول
أسائل الجدران
يعود عبيد؟
فيرتدُ صوتي وحيداً
أأبق هنا إلى الآبدين
يزدرد البيت حزني
يشبع حتى الثمالة منه
أأبق هنا إلى الآبدين
دون رجل
دون زوج
دون أب
يمتدُ
يكبرُ حتى يخبُ عليّ
أقاسمه الحوش
الليوان
أواني الطهو والسدرة الكهلة
أرميه حَبًّا لدجاجات البيت
يضيعُ عساه
ويصغرُ حتى لعلي أنسى
أيا فاطمة: كفي
تواصل سردا مديدا، مديدا

رحيل عازف السكسفون

جلس مجيد مشوّش الخواطر يستعيد ذكريات حياة قد ملأتها أحداث لم يعد يتعرف عليها، تذكّر فجأة معاناته في السجن منذ اليوم الأول لاعتقاله في سجن جدا تلك الجزيرة الصخرية المعزولة عن العالم الخارجي وحتى إطلاق سراحه في العام ١٩٩٠. سرت الطمأنينة إلى نفسه والراحة إلى جسده، عندها سألته أراك قد عانيت كثيرا؟ ثبت نظراته فنّ واختنق تحت فيض من الذكريات، وظلّ يعتصر ذهنه وبعد برهة قال: السجن قطعة من العذاب، فما بالك بمعتقل مصّغد بالسلاسل في القدمين ومربوط بسلاسل حديدية ثقيلة في زنزانة انفرادية.

حميد الملا

ثم أضاف: ظللت اثنين وعشرين عاما في المعتقل منهمكا ليلاً ونهاراً في كتابة النوتات ودراسة النظريات الموسيقية، نهاراً في الكتابة وليلاً في تسويد ثم تبييض ما كنت أكتبه، وأعالج النواقص وأعيد الصياغات وأرتب النوتات ومن ثم أخلدُ إلى النوم، تذكّر شيء ما وقال: عندما أستعرض هذه التفاصيل أتساءل إن كنت عشتها حقيقة أو تراءت لي في الحلم، بحثت عن السكينة في كل الأشياء ولم أجدها إلا في ركن صُحب كتاب وموسيقى وهكذا انتهت سنوات السجن على هذا المنوال.

إن الناس يكونون محظوظين إذا عملوا عملاً يحبونه وكانوا بارعين فيه، وأنا واحد من هؤلاء، فالأقدار تركت لي فرصة للتأليف الموسيقي، الفنان وُلد ليحيا داخل الحروف والموسيقي هي بحاره وخلجاته، اثنان وعشرون عاماً يا صاحبي ليست بالقليلة، فالقدر صاغ قدراً لي خالف كل توقعاتي وأحلامي في الحياة، ومع كل ذلك فأنا شخص لاينظر إلى الخلف أبداً، شخص لا تكويه الذكريات المعذبة، ولا تكون سبباً في توقفه عن تحقيق أمنياته، كما أن الانسان قادر على الوصول إلى أبعد نقطة في الطريق الذي اختاره بالاصرار والصبر والأمل، فقد تمكنت من تجنيب نفسي الكثير من العناء، لكي أبقى شامخاً معتزاً بنفسي، وبما قمت به من عمل وطني لطرد المُستعمر من بلدي، وكان لي ما أردت، فقد خرج المستعمر غير مأسوف عليه، فقيمة الإنسان لا تكمن في النصر بل في الكفاح من أجل النصر.

تقطعت خيوط الأفكار في رأسه، لملم شتات نفسه، وكفّ عن كتابة إحدى النوتات الموسيقية مستذكراً شيئاً ما، طنين في رأسه كاد أن يفجرعروق دماغه ثم هدأ واستلقى على تلك الخرقة الموجودة في الزنزانة بعدها أفاق من غفوته، وبدأ في تأليف قطعة موسيقية أخرى تفيض بأبداعات جميلة وآسرة سماها «ذكريات». سألته بعد خروجه من السجن كيف لك أن تكتب بدون المعدات اللازمة للكتابة؟

قال: طالما الذهن صاحٍ وصافٍ فليس من العسيرعليّ أن أخزن في الذاكرة ما أود كتابته لاحقاً فقد كتبت إحدى القطع الموسيقية على ورق من علبة صابون، وكان ذلك في العام 1968وألفّت الباقي أولاً في الذهن، ومن ثمّ على ما تيّسر من الورق المقوى، وورق أكياس الاسمنت، والقراطيس وعلب السجائر، ودوّنت النوتات عليه، وهكذا كنت أشغل وقتي بالتأليف الموسيقي وتدريس السجناء الموسيقى.

قلت: «لقد تعرف الناس على المقطوعات التي ألفتها في السجن مثل ازميرالدا، ونوستالجيا، وجزيرة الاحلام، وغيرهما الكثير فكيف استطاعوا؟».

أجاب، مزهواً ومنتشياً وهو يضحك بصوت عال، الإنسان بإمكانه فعل المستحيل، فقد هُربت تلكً المقطوعات إلى الخارج، لتصل إلى السويد أولاً، كما وصلت إلى المانيا الديمقراطية، حيث

عزفتها فرقة راديو برلين السيمفونية، بعد أن سُجلت على أسطوانات بلاستيكية، ووزع الآلاف منها في مهرجان الشبيبة بموسكو في العام 1985، غاب في لحظة تأمل، ثم أردف قائلاً: مهمة صعبة أن تُحّول النوته إلي كلمات ناطقة بالألحان، ومع ذلك عندما نحبّ عملنا بدهشة وذهول يصير كل شيء ممكناً، نعم عرفت ذلك، وأنا في السجن من أن الرفاق قاموا بهذا العمل الجبار وأنا اقدّر لهم ذلك كثيراً .

ثم عاد وقال: الآلام والأحزان التي سببها مبضع القدر لي لم تثن طموحي في أن أكون ما أنا عليه، فأحياناً معاناة ذهنية شديدة تلازمني، وبالخصوص بعد فقداني لوالدتي في العام 1981، أمي الحبيبة تغرقني في حالة من الذهول الجميل لما كانت تغمرني به من حبّ وحنان أفتقدته وانا في السجن بعد رحيلها، والدتي التي لا يسعها أي مكان هي لحظة الضوء عندما تحلّ الظلمة. قال أيضاً: تعلم كيف تنسى آلآمك وإذا تعذر ذلك أكتبها لتستمر في الحياة، وهآنذا أكتب كل ذلك، حبي للموسيقى عوضني قليلاً عن هذا الفقدان، وعن ظُلمات السجن وأهوال المعتقل.

استفاق وفي دماغة وقائع خاصة مستعرة بلهيب الشوق والحنين فامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الأليمة وعلى أثر ذلك ألف قطعتين موسيقيتين حرقة القلب، وأغنية الراحلين أهداهما لوالدته في ذكرى رحيلها. أفقت بعد سماعي لتلك المقطوعات الحزينة. شعرت فجأة بموجة من الإرهـاق اللذيذ وقد غزت أطراف جسدي وقلت بأنك يا مجيد ستعيد بريشة الفن التي لا ينضب زيتها طلاء قضايانا الوطنية كلما بهت وهجها.

استلقى على ظهره، شبك كفيه تحت عنقه وأخذ يتأمل، كسولاً مريضاً بالذكريات البعيدة، استجمع أفكاره وقال خلال فترة السجن الطويلة لم أنقطع يوماً واحداً عن الكتابة والتأليف حتى أنني أصبحت مريضا بهذه العادة، تعلمت كيف أطلق العنان لافتتاني بالتأليف الموسيقي وكأنما هي كل ما تبقى لي من حياة، فالموسيقى مدعاة للحب والتأمل، فصرت أكتب أكثر مما أتكلم فمع القلم أجد انساً وتوافقاً وبهذه الطريقة أنجزت مؤلف ضخم أسميته القاموس الموسيقي الحديث.

على الرغم من نبوغه النادر وعبقريته الفائقة الا إن الطيبة والبساطة خصال لازمته في كل حركاته وتصرفاته وهو الإنسان القادم من حي العدامه في المنامة، وُلد لاسرة فقيرة، وبينما كان انتباهه منصرفاً إلى مكان آخر سجلت ملامحه في ذاكرتي: نحيل البنية، بشرة سمراء، شعر مجعد، روح عذبة، وما لفتني فيه أكثر من أي شيء آخر عينيه، الحزينتين، القلقتين، المتألقتين، كان فيهما حزن هادئ لا يعرف الشفاء أو هكذا بدتا لي وأنا أتفرس في تلك الملامح.

وعرفت لاحقاً بأن التعذيب أثرّ في سمعه، وأن الكتابة على تلك الأوراق الصغيرة في الظُلمة أثرت في نظره، ومع كل ذلك ظل متحداً بعمله الموسيقي الى أبعد الحدود وإلى درجة التوحد، وكأن مخيلته تعمل دون توقف واحسست أن كل ما لايستطيع قوله يعبر عنه بالموسيقى.

كنت أنظر اليه وأعجب بتلك الكبرياء وبتلك البساطة اللتين يتحلى بهما رغم ضيق الحال وضنك المعيشة، فقد ظل وفيًا لوطنه، مخلصاً لشعبه، فرحاً بما قدمه والعمل الفني هو طمأنينيته وعشقه الوحيد. إني لأكبر في هذا الانسان جلده وكبريائه، كيف له أن يبدع كل ذلك وهو سجين سنوات متواصلة، منكباً على الكتابة والتأليف في جزيرة نائية، إنه فعلاً إنسان من طراز نادر، فقد سلك طريقاً صعباً وعسيراً دون أن يتعب أو تلهث أنفاسه.

كان مجيد يردد دوما على مستقبليه بأن السعادة هي أن تؤدي واجبك، وكلما كان أصعب كانت سعادتك أعظم، فالموسيقى هي كنز من أسرار أبدعتها عقول كثيرة وبقيت حية، بعد موت مبدعيها، ثم أضاف: لا شيء يستحق أن نموت من أجله مثل الحرية، وهآنذا حرّ طليق بعد تلك السنين الطوال.

وددت أن أستفسر عن شي أسرّه لي أحد رفاقه، فسألته عن ذلك القط الذي لازمه في السجن فقال: تقصد القط (جيك). كان صغيراً لونه رمادي، اعتنيت به فصار لا يفارقني نهاراً وليلاً حتى موته، فكان جزءاً من تلك الحياة الصعبة في السجن.

ماذا أقول وقد إعترتني حالة من الكآبة، لأن أمثالك لا يحظون بتكريم من قبل الدولة ولا أن تصبح أعمالك الفنية مقررا دراسياً للطلاب ليتعرفوا على أبطال الوطن ودورهم المجيد، فشعلة النضال مشتعلة بك، رغم غيابك، فأنت الغائب الحاضر دوماً في وجدان الوطن.

جمعت أفكاري المبعثرة التائهة بعد ذلك اللقاء وجاهدتُ لكي أركـز على ما قاله في ذلك اليوم، واذا بخبرهزّ جميع اركان جسدي، أغمضت عيني وأحسست بالدموع تنساب على خدي بطيئة ودافئة لقد مات مجيد.

في ظهيرة ذلـك اليوم الكئيب أصـوات الآلات الموسيقية تتصاعد وتصدح ألحان حزينة، وبأنين أكثر وأكثر يُسمع من بعيد صوت الكونترباص، ويمتد خيط الأنـين عبر صوت السكسفون والهارمونيكا والأكورديون والفلوت مصحوباً بنداءات وصرخات جنائزية. لقد مات مجيد، مات. وكان ذلك في الثالث والعشرين من فبراير للعام 2010 . يوم حزين آخر مرّعلى الوطن.

مصادر:
ساكسفون وقنبله –هيكل الحزقي
مجيد مرهون –كيف تكون مانديلا وبيتهوفن في آن واحد– محمد فاضل العبيدلي

الفن والتغيير

محمد شاهين

يمكن للفن أن يُغيّر المجتمع ويمكن له ألا يغيّره، وفي الحالة الأولى إن تهيأت له الظروف الموضوعية، فإنه يسهم في إحداث التغيير حيث أرى أن الفن كان له دور واضح وملموس في تغيير أنماط من سلوكيات افراد المجتمع، والعكس صحيح أيضاً، فحين لا تتوفر هذه الظروف لا يستطيع الفن أن يغيّر.

وقد كتب برتولت بريخت عن هذه الخاصية في الفن، التي تحرر نفس الانسان حيث قال: «إن مسرحنا يجب أن ينمي لدى الناس متعة الفهم والإدراك، ويجب أن يدربهم على الاغتباط بتغيير الواقع، لا يكفي أن يسمع متفرجونا كيف تحرر بروميثيوس، بل يجب أيضاً أن يتدربوا على تحريره والاغتباط بهذا التحرير، يجب ان نعلمهم في مسرحنا كيف يشعرون بكل الفرحة و الرضا اللتين يشعر بهما المكتشف و المخترع، وبكل النصر الذي يستشعره الفائز على الطغيان».

و تأييداً لرأي بريخت أرى أن هناك فئة في المجتمع من المستحوذين على السلطة والثروة لا تهيئ الطريق لإنطلاق الفن الذي يسعى لخدمة وتغيير المجتمع، لان الفن – كما عرفناه ولمسناه – عملٌ راق وسام يتضارب مع مصالحها الاقتصادية، أما الفن الذيً تروج له تلك الطبقة من المجتمع فلا يعدو كونه عملاً تهريجياً وتسلية ليس إلا.

مما سبق، نؤكد على ضرورة إعطاء الفن دفعات إيجابية ليأخذ دوره المناط به، كما أشار إليه بريخت، والذي رأى أيضاً: «ان النظرة الجمالية السائدة في مجتمع يحكمه صراع الطبقات يتطلب أن يكون الأثر المباشر للعمل الفني هو إخفاء الفروق الاجتماعية بين المتفرجين، بحيث تنشأ منهم اثناء استمتاعهم بذلك العمل، جماعة لا تنقسم إلى طبقات وانما تكون وحدة إنسانية شاملة».

ونستنتج من ذلك أن الفن سلاح إيجابي للتطوير، وقادر على إحداث التغيير والتقدّم، إذا ما لم توضع العقبات أمامه.

هدوء...مريد يلقي شعره

اختلف الشاعر مريد البرغوثي عن مشاهير الشعر الفلسطيني، وشعراء القضية الفلسطينية، لارتقاء شعره أعلى درجات السلم اللغوي، بمعنى أن عبارته لم تكن سهلة، لا من حيث ثقل المعنى ولا من حيث الكثافة اللغوية التي يصوغ بها أفكاره. هو تحديداً رجل عميق، صاحب أفكار، نخبوي، مجازي دون ثرثرة، بليغ دون فائض، على الأقل هذا استنتاجي المقتضب عنه بعد تجربتي معه في تواجدنا معاً في لجنة البوكر في إحدى دوراتها. وهي تجربة اتسمت بالغنى بوجوده.

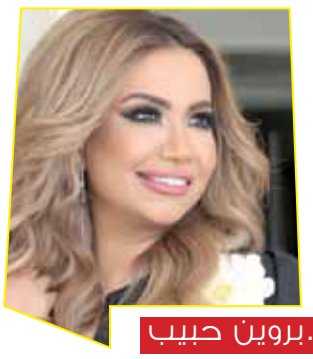

د.بروين حبيب

بالتأكيد عرفته كشاعر، لكنه كان يملك مهاراته الخاصة في القراءة، وفي الكتابة، وقد لمست ذلك عن قرب في طريقة كتابته لخطاب التوصية، كان جد مميز، مقارنة مع كل الخطابات التي حضرتها فيما بعد كل سنة خلال احتفاليات البوكر العربية. غير ذلك أذكر جيداً أننا خلال القراءة تبادلنا الكثير من الرسائل الإلكترونية التي حوت تقييماتنا، ومن بين تقييماتي كتبت تقريراً جيداً في رواية الكاتبة هدية حسين، وما حدث لي مع مريد بسبب هذه الرواية يستحيل نسيانه.

فقد اجتمعنا كلجنة في اسطنبول، وصادف أن وصلت طائرته وطائرتي في الوقت نفسه، فخصصت لنا سيارة واحدة لإيصالنا للفندق، فبقيت أنتظره، وبمجرد وصوله جلس بقربي وفتح الحديث بلباقة عالية ودون توقع مني ملمحا أن الرواية لا تعالج قضية مصيرية، أو تحولات كبرى في الأمة، فهي رواية بسيطة تحكي حكاية مصائر أربع نساء بينهن خياطة وهذا في نظره يقلل من قيمة النص. دافعت عن الرواية بقوة في اجتماعنا، وشعرت أن مريد اكتشفني مثلما اكتشفته، ليس فقط من خلال تعاملي مع السرديات، بل في مناقشاتنا المتنوعة بعيداً عن اجتماعات العمل.

كان إيقاعنا الفكري متناغماً جداً، وأذكر فيما أذكر أيضا طريقة إصغائه لي وأنا أفكك رواية «الطلياني» لشكري المبخوت، وإعادة تركيبها بمعاييري الخاصة، أعجبته طريقتي في الدفاع عن النصوص التي نالت اهتمامي، وأعجبت بطريقته في الدفاع عن نصوص الشباب، والنصوص الجديدة، فحين تحدثت عن جشع الكتاب الكبار أيّدني، وأبدى رغبته في إبراز طاقات إبداعية بدماء جديدة.

قبل التعرف عليه وجها لوجه، والتعامل معه إنسانياً، عرفت مريد البرغوثي من خلال كتابه النثري "رأيت رام الله" ولم أختلف عن

أغلب من قرأوا هذا الجانب من سيرته، والتي نقل إلينا من خلالها مواضع وجعه الشخصي كفلسطيني سلخ من أرضه، فقد عشت صدمة هائلة وأنا أعبر إلى ماضيه وتاريخه، ومشاعره، وأتوغل بين ذلك الكم الفسيح من الشعر والنثر الجميل لألامس قلبه. بالضبط هكذا تفاعلت مع نصه البديع ذاك، ويصعب علي اليوم وصف لحظات القراءة تلك وما تخللها من هزات نفسية عصية على نقلها لغوياً.

أمام نصه لا يمكن قياس هياج اللغة إلا بكمية الصمت التي تنتابنا. هو نفسه كائن يتقن الكتابة باحترافية عالية لأن الصمت جزء من شخصيته، ثمة جانب مهم في تعامله مع من معه، متأمل، يتقن فن الإصغاء، سريع البديهة، كما تستهويه ألعاب اللغة على طرافتها، والتي يمارسها في تعليقاته الذكية، ومداخلاته المبهرة.

صحيح مريد البرغوثي شاعر مهم وكبير، ولكنه لم يحقق الشعبية التي يستحقها نصه إلى أن توفي. يوم إعلان وفاته تربع على عرش السوشل ميديا ك "ترند" غير محمود درويش مثلا الذي عاش نجماً وتوفي نجماً.

اختلف مريد في مسيرة حياته، وفي صياغته الشعرية لرؤاه السياسية والثقافية. كان حريصا أن تبقى قدماه دائما على الأرض، رفض استصغار نفسه بمجاملات مقيتة، تفرّد بزواجه بالروائية العظيمة رضوى عاشور، وبقصة الحب التي عاشها معها وأثمرت مبدعا بحجم تميم البرغوثي. تفرّد في تلك العلاقة، كوجه لهرم صعب. ولعلي أيضا محظوظة بتعرفي على رضوى عاشور عن قرب في بداياتي بالتلفزيون. وهي شخصية جميلة بتواضعها وهدوئها وحكمتها، إذ أذكر تماما أن فريق العلاقات العامة المكلف باستقبالها في المطار أضاعها، ودون أية مشاكل أخذت تاكسي إلى الفندق، طبعا اعتذرت منها بسبب ذلك الخطأ، ولكنّها تعاطت مع الأمر كما لو أنه لم يحدث، أروي هذه الحادثة لأن بعض ضيوفي كان لا يعجبهم العجب، وخطأ مثل هذا كانوا أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بسببه.

فهمت تركيبة رضوى عاشور ومريد البرغوثي من خلال تجربة استضافتهما في برامجي، فقد تركا معا انطباعا طيبا لدي، بسبب تواضعهما ولباقتهما وعمقهما.

لا يمكننا الحديث عن مريد دون ذكر رضوى وتميم، نعرف في قرارة أنفسنا أنهم يمثلون جرحنا الأبدي، ويعكسون عاهاتنا العصية عن الشفاء، ذنبنا غير القابل للمغفرة، جحودنا أمام عائلة ناضلت بالشعر والحب والكلمة الجميلة لتحقيق أمنياتها البسيطة، دون أن تحصل عليها على بساطتها...

مريد البرغوثي تجاوز فكرة الشاعر والناثر والناقد، هو قامة وقيمة فلسطينية وأكبر من ذلك هو قيمة عربية. وفي إسمه

نضال كبير. عائلته الصغيرة مثلا تتكون من الأب المحمول بهمّ، والأم بهم، تميم الطفل حين رأى والده لأول مرة إلتبست عليه الأمور نادى عمه ب "بابا"، صورة لا تضاهيها صورة لاختصار الشتات الفلسطيني.

وأنا أكتب هذه السطور محاولة قول ما أعرف، لتوثيق شهادتي حول هذا الرجل العظيم، فكّرت في مصائر آخرين من نفس طينته، كيف حرموا من زوجاتهم وأولادهم لأسباب غبية قد تكون مرتبطة بتعنت موظف من الدرجة العاشرة، أو بإفلاس فكري مشترك لمؤسسات يفترض أن تحمي العقول المفكرة والمنتجة بدل تشتيت طاقاتها في السجون وبين المنافي.

قصة مريد ورضوى كانت لتكون مادة سينيمائية تهزّ ضمائرنا، وتضعنا وجها لوجه أمام أخطائنا لنعرف السبب الحقيقي لتخلف عالمنا العربي. ولكن ربما لم يحن الوقت بعد ليقظة، وإدراك حقيقيين لقيمة هؤلاء الإستثنائيين الذين تنهض الأمم بحمايتهم لا بالتنكيل بهم.

لكن مهلا، لماذا تصدّر اليوم مريد البرغوثي قوائم الأعلى تداولا في كثير من الدول العربية؟ لماذا اكتشفت جماهير مواقع التواصل أن هذا الشاعر يلقي شعرا يقتلع القلوب من أقفاصها؟ وأن هذا الصوت بقوة صوت درويش ولكنه ليس درويش؟ وأنّه شاعر من الذين نحبهم كثيرا، ولكنّه قبل هذا الموت كان هناك تحت الشجرة الظليلة التي حجبته عن الضوء؟

ثمة ولادة ثانية لهذا الشاعر لحظة موته، أو لنقل إنبعاث قوي لكلمته، ولكل ما كتبه وهو يروي حكايته. عودة غريبة من الهناك البعيد إلى عقر قلوبنا، انعتاق من السجن الذي ضُرِب عليه، انتصار عظيم للشعر على غير توقع، رسالة من أقوى الرسائل التي يمكن أن يتلقاها العالم، فهذا الجمهور الذي قد يبدو تافهاً ومسالماً مفضِّلا تناقل القصص المفرغة من أي محتوى جاد، بإمكان الشعر أن يرفعه فجأة لعتبة الوعي..!

سر الشعر يكمن هنا، وسر سلطته المخيفة تكمن هنا أيضا، إنّه يوقظ الوعي، وسواء جاء مفعوله مبكراً أو متأخراً فإنّه نفسه، يعيد الحياة للنفوس التي لوثها الموت، يزرعها بشتلات الأمل، ويغير وجهها إلى الأبد.

والآن من لم ير رام الله عليه أن يبحث عنها في كتاب مريد، ومن لا يصدق أن الحب أقوى من المسافات والظلم، فليقرأ قصائده، لا شيء قطع الحبل السري الذي ربطه برام الله ورضوى، فقد واجه كل الأمور الفظيعة بشعره، وهدوئه وصمته. يمكننا الإصغاء جيدا هذا الصوت الرخيم الذي يقرأ شعرا جميلا تقشعر له الأبدان إنّما ينبعث اليوم من قبره.

نبع الوفا

شعر: د. هنادي
بنت عيسى الجودر

أمان يا أرض الخلود الخالدة بنبض الزمان
حرزك.. أمان الله ودُعاء المصطفى وأهل الوفا

من خلقت الدنيا وتفاصيلك على نهج الجنان
مليون نخله والعيون اتحوفها جَهْر وخفا

والتين واللوز الحمر .. وعِدّ ما تشاء من فضْل كان
يحعل من البحرين جسمٍ في حَضن هذا البحر نام وغفا

روعة جمالك يا وطن إنّ البحر شالك وصان
لك داخله لول ودُرر .. ثروات ما قالت: كفى

الناس مشعل طيب يضوي ارجاءها ويحيي المكان
وللضيف نار يقيدها قاصي الحشا .. كلّما لفى

من ريحة المشوم أُجزم يا وطن إنّك حَضن نبع الحنان
وإنّك جنان أهل الوفا .. الوارفه .. الحِصن .. الدفا

في قلوبنا نبض يتغنّى: يا وطن انت الغلا وانت الضمان
من خان بك .. نُجمع معاً ونقول له : آآاخ وأفاا

ينمو على ارضك وئام الشعب والقاده ويُدان
كل خارجٍ عن مِلّة الحُبّ النقي وعبد الجفا

لك حُبّ يرتع في شغاف قلوبنا .. وبسّ بالبنان
أشّر .. وكلّنا لك فدا .. إيدٍ بإيد.. طبّ وشفا

لك نور يضوي قلوبنا وبه نهتدي لْبرّ الأمان
لك نور يضوي قلوبٍ تحبّك يا وطن.. ما قط طفا

في ماضيك كنت الحضارة.. الملتقى وكلّ المعان
وفي حاضَرك انت التميّز والبطل والدهْر لعيونك صفا

اصعد تربّع يا وطن فوق القمّ واطلق عنان
انجازك التاريخي به ثوب الفخر طال وضفا

إن رحت عنْك .. تبقى الأبو.. وإن جيتلك أمّ واحتضان
يا أمّي (البحرين) حضْنك راحتي وأمْن وعفا

خذتي شعار الاحتواء كالأمّ .. حُب واتّزان
تغفر إذا إبنٍ خطى درب الخطا وزلّ وهفا

تبقين يالبحرين دانة حِسْن يفداها الحِسان
وتبقين أكرم من عطا واسخى بلد عاش وتسامح ثم عفا

لك نبتهل يا ديرتي كل مرة يُرفع بها صوت الأذان
(الله وأكبر) يحرسك يا ارْض الجمال الخالدة ونبع الوفا

البائع الذي أصبح كاتباً

ها نحن قد وصلنا ربيعاً، بعد أن ارتوت الأرض من ماء السماء فصلاً كاملاً، لتنبت الأشجار والورود مرة أخرى، وتكتسي الأرض خضرة، معلنة عن اعتدال الطقس. ها هي الأعين ترتوي أملاً، والحواس تستريح بجمال الطبيعة وبتجدد مظاهر الحياة، وها هو الأمل ينبعث مجدداً، ليعلن عن بدايات جديدة.

سوسن حسن

لا أعرف إن كان هذا الربيع بالذات يبشرنا حتماً ببدايات جديدة، ولكن لنكن متفائلين ولنحصر آمالنا في الكلمات، بعد أن أصبحت هذه السنة، سنة الكتابة، بلا منازع، للكثيرين، بعدما اجتاحت العزلة حياتنا، وأعطت الفرصة للذين لم نتوقع قط أن يبوحوا لنا بالقلم بما تخفيه أفكارهم من خيال.

لنا أن نضرب المثل بجمال الشريقي، شاب أمازيغي جزائري الجنسية ويبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، لم يسبق له أن كتب مقالاً أو نشر رواية، و لم يحالفه الحظ أن يكمل تعليمه، لا بل وأنه قضى جزء كبير من السنين العشر الأولى من شبابه وهو في حيرة من أمره، لا يعرف ما يريد وما عليه أن يفعل، حتى ساعده أهله قبل عدة سنين في شراء بقالة تقع في أحد المدن غير المعروفة في الشمال الفرنسي، فبدأت سنوات الملل والعزلة لجمال، وسط الزبائن الذين يدخلون صامتين لشراء حوائجهم ويخرجون مع قليل من الكلام، هي سنوات لم يكن معتاداً عليها، ذلك الشاب الثرثار، الذي لم يعرف التخلص من الفراغ دون الانكباب على القراءة والكتابة.

ليس كل الروائيين مُدرسين أو صحفيين. بعضهم روائيون بالإرادة والبعض الآخر أطباء، مهندسون، أصحاب أعمال أو حتى عاطلون عن العمل. ما يعدّ غير الدارج، هو أن يكون الكاتب بائع مواد غذائية، وأن يكتب أولى رواياته خلف منضدة العداد، بحضور الزبائن الذين يشغلونه باستمرار عن الكتابة. خارج ساعات الذروة، قضى جمال معظم وقته وهو يقرأ بنهم أنجح الروايات التي عرفها الأدب الفرنسي من القرن التاسع عشر حتى قرننا هذا، ليعرف كيف يمهد لحصاده الأول، أو ما أطلق عليه «شبه سيرة خيالية»، قصة الشاب الذي يكتشف نفسه ويبدأ في إيجاد ذاته قبل اكتشاف العالم.

تحكي الرواية التي عنونها جمال ب: «الراتب المقدس"، كل الأفكار الشيطانية المرئية أو المحسوسة التي تعبر محيطه وهو واقف خلف المنضدة، فيتمنى لو أن حاضره كان أفضل مما هو عليه. "لماذا لا أسرد قصة حياتي بصورة أكثر إثارة؟" كان يقول لنفسه ربما هي الإثارة التي كانت ستعطي لحياته منحى آخر وتجعل منه شخصاً آخر.

على كل حال تبدأ الرواية بحكاية تشبه حكايته، وهي قصة طالب يتم طرده من قبل أبيه، بعدما صارحه برغبته في ترك الجامعة من أجل تكريس كامل وقته للكتابة، فما كان منه إلا أن يصرخ على ابنه طالباً منه الخروج من المنزل، ليرى الراوي نفسه والجاً بقالة آلان باسيل، الذي لا يتردد في تعيينه. لم يكن آلان باسيل هاوياً للكتابة، كان بائع مواد غذائية مع طموح واحد مصاحب له: أن يصبح مليونيراً. كان مستعداً لأي شيء ويحتاج إلى شريك، فقام بتجنيد بطل الحكاية من أجل المشاركة في تجارة المخدرات، لتقلب حياته رأسا على عقب، و يدخل في سلسلة مغامرات ثنائية حاسمة، مليئة بروح الدعابة، ساعدته في كتابة ما كتب اليوم، وما وضع للرواية نهاية.

الرواية تجسد الفرق ما بين الأفكار والأفعال. على سبيل المثال، قد تدفع الرغبة في الحصول على المال إلى التفكير بالسرقة أو الغضب إلى الرغبة في الضرب، ولكننا لا نحوّل، لحسن الحظ، كل الأفكار إلى أفعال. كان بإمكان جمال البائع أن يتواطىء مع شبكة مافيا لجني المزيد من المال ولكنه لم يفعل، واختار بدل ذلك أن يوظف خياله لخدمة الأدب وحثّ الشباب في سنه على الكتابة.

بعدما أنجز الرواية، راح جمال الشريقوي يرسل المجلد إلى عدة دور نشر، غير آملا كثيراً في أن يرد عليه أحد. كان يهمس لنفسه: "من سيرغب في نشر رواية بائع مواد غذائية ؟ لا أحد !» شاء الحظ أن يبتسم له ببداية جديدة، بعدما اتصل فيه ناشر، طالبا التحدث مباشرة مع تاجر المخدرات آلان باسيل، لينفجر جمال ضاحكا: "هل هذه سخرية ؟". ما كان سخرية، أصبح واقعاً، حيث تمكن الشاب المبتدأ من نشر روايته الأولى الشهر الماضي، معطياً المساحة للكثير من الاعلاميين لزيارته في بقالته، من أجل سرد قصة البائع الذي أصبح كاتباً.

واحة الفكر

لقـاء لينين وكـروبـوتكـن (٢ - ٢)

ترجمة وإعداد: هشام عقيل

حينها نظرتُ إلى فلاديمير إليتش، بدت على نظراته علامات السخرية والتسلية وهو يستمع بإنتباه شديد لكروبوتكن. كان من الواضح أنه مذهولاً من إنبهار وتحمس كروبوتكن بالتعاونيات على الرغم من أن ثورة أكتوبر قد قدمت نموذجاً متقدماً بأشواط عنها. ظل كروبوتكن يتحدث عنها أكثر فأكثر، وحكى كيف تأسست تعاونية اخرى في مكان آخر في انكلترا؛ بالإضافة إلى تأسس فيدرالية تعاونية صغيرة في اسبانيا، وتطور الحركة السنديكالية في فرنسا. لم يستطع لينين أن يتمالك نفسه فقاطعه فوراً:

(هـذا مضر جـداً، إذ تجاهل الجانب السياسي وتقسيم الجماهير العاملة يؤدي بهم إلى التغافل عن النضال المباشر.)

كروبوتكن: (لكن هذه الحركة توحد الملايين من البشر، وهذا بحد ذاته يعد شيئاً عظيماً. مع الحركة التعاونية سنخطو خطوة كبرى إلى الأمام.)

قاطعه لينين: (جميل جداً هذا كله. بلا شك، للحركة التعاونية أهمية كبرى ولكن إن كانت تكتفي بطبيعة سنديكالية فإن هذا أمرٌ مضر؛ ولكن أهذا هو الأساس حقاً؟ أيؤدي كل هذا إلى شيء جديد؟ هل تعتقد حقاً بأن العالم الرأسمالي سيفرش الطريق أمام الحركة التعاونية؟ لا، الرأسمالية ستحاول السيطرة على هذه التعاونيات بشتى الطرق الممكنة. هذه التعاونية «المضادة- للسلطوية" في انكلترا ستسحق بلا رحمة وستتحول إلى أداة في يد رأس المال. سينتهي بها الأمر إلى الاعتماد على رأس المال وهكذا تنتهي الحركة، التي تتعاطفَ معها جداً، في الخيوط العنكبوتية لرأس المال. اعذرني، ولكن ليس لكل هذا أي أهمية! إنها مجرد تفاصيلاً زائدة! ما نحتاجه هو العمل الجماهيري المباشر، وطالما لا يوجد هذا العمل لا يُمكننا أن نقول أي شيء حول الفيدرالية، أو الشيوعية، أو الثورات الاجتماعية. كل هذا لا يعدو كونه لعب أطفال، جلبة من دون أي أساس صلب، بلا سلطة ولا وسيلة وهكذا لا يقدمنا ولا يؤخرنا إزاء أهدافنا الاجتماعية.)

في هذه الأثناء، نهض فلاديمير إليتش بحماس وأخذ يقول ما قاله بصوت عالٍ وواضح، أما بيوتر إلكسيفيتش كان يستمع بإنتباه لكلمات لينين الملتهبة؛ بعدها لم يستحضر كروبوتكن مسألة التعاونيات ثانية.

كروبوتكن: (أنت على حق، من دون النضال لن نصل

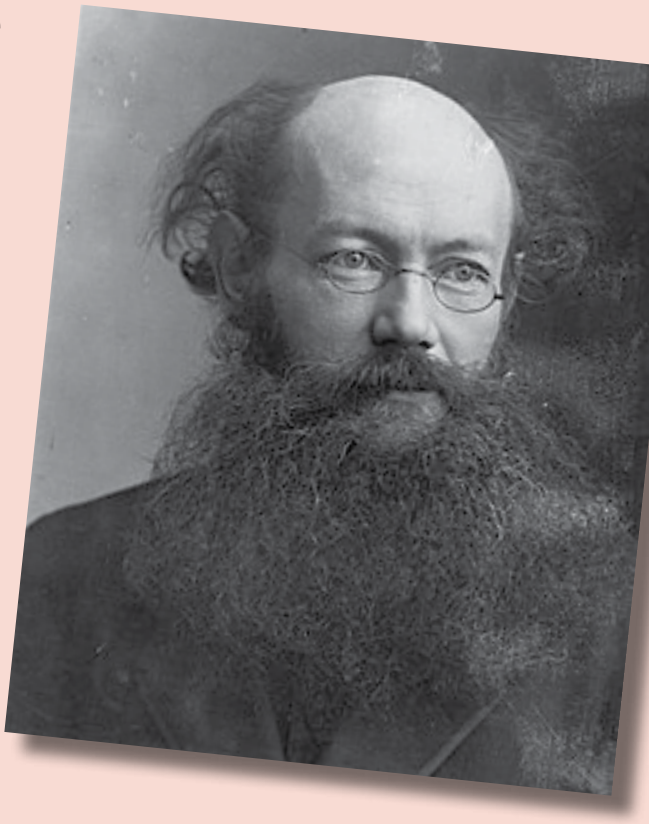

إلى أي مكان في بلد واحد، ايّ من دون أكثر النضال مرارة.)

لينين: (لكن عليه أن يكون نضالاً جماهيرياً! أما النضال الفردي ومحاولات الاغتيال لا تفيد أحد بأي شيء؛ حان الوقت لأن يفهم الأناركيون هذه الحقيقة. لن ينجح النضال ما لم كان في الجماهير، وعبر الجماهير، ومع الجماهير... أما الوسائل الأخرى، ومن ضمنها الوسائل الأناركية، فأنها الآن في أرشيف التاريخ. إنها بلا أي فائدة، ولا تخدم أي شيء، ولا تجذب الناس؛ بل إنها تشكل إلهاء للناس الذين يسعون خلاصهم في هذا الدرب المتعب.)

فجأة سكت فلاديمير إليتش، وابتسم ابتسامة لطيفة قائلاً: (اعذرني أطلت عليك ولعلني أنهكتك، لكن ما العمل؟ نحن البلاشفة هكذا، وهذه مشكلتنا إذ أن هذه المواضيع هي المفضلة لدينا ولا نستطيع أن نتحدث عنها من دون أن نتحمس.)

كروبوتكن: (إطلاقاً! إذا كنت أنت ورفاقك تفكرون بهذه الطريقة، ايّ إذا السلطوية لم تسيطر على عقولكم، وإذا كنتم تشعرون بأنكم لن تأخذوا نهج الدولة في القمع، إذن ستكونون قد أنجزتم الكثير من الأشياء العظيمة. هذا يعني بأن الثورة في أيدٍ أمينة.)

رقّ قلب لينين فقال: (نحن نقوم بأفضل ما لدينا، كما نحن بحاجة إلى جماهير متطورة. أنا أظن بأن عليك إعادة طباعة مؤلفك (الثورة الفرنسية العظمى) لينشر بأوسع شكل ممكن؛ هذا الكتاب مفيد للغاية. لكن يا ترى أين سيطبع هذا الكتاب؟ ليس من الممكن طباعته في دار نشر الدولة.)

كروبوتكن: (إذا كنت تشعر بأن الكتاب مثير للاهتمام ومفيد فأنا مستعد لنشره في طبعة جديدة ورخيصة. لعلي سأجد دار نشر ما تابعة لأحد التعاونيات ستقبل به.)

لينين: (لن يكون في ذلك أي مشكلة في هذا إطلاقاً.)

بعد ذلك انحسر النقاش ما بين الاثنين، فنظر لينين إلى ساعته ونهض ليعلن بأن عليه الاستعداد لاجتماع السوفناركوم. ودّع كروبوتكن بحرارة وقال له بإنه سيسعد بأي رسالة يتلقاها منه. ودعنا كروبوتكن ورافقناه إلى الباب. بعدها قال لينين لي:

(كم شاخ كروبوتكن! إنـه يعيش في بلد متفجر بثورة قلبت كل شيء رأساً على عقب، ومع ذلك جلّ ما يفكر به هو الحركة التعاونية! هاهو فقر أفكار الأناركيين والمنظرين والاصلاحيين البورجوازيين الصغار؛ ففي وقت التهاب الحركة الجماهيرية الخلاقة، ايّ في وقت الثورة، تجدهم في حيرة من أمرهم فلا يبتكرون أي خطة صالحة ولا يطرحون نصائحاً عملية. لنفترض للحظة بأننا قمنا بما ينصحنا أن نقوم به، حينها بحلول يوم غدٍ سنرجع إلى النظام الأوتوقراطي ثانية؛ وأين سنكون نحن؟ جمعينا، وهو معنا، سنكون على جادة الطريق نهذر. كم كانت مذهلة الكتب التي كتبها، وكم كان قلمه رشيقاً، وكم كان منعشاً أسلوبه في الطرح والتفكير، لكن هذا كله ينتمي للسابق ولم يتبق شيئاً. مع ذلك هو كبير في السن وعلينا أن نحيطه برعايتنا ونوفر له كل حاجاته بقدر المستطاع؛ علينا أن ننفذ هذا بأكثر الأشكال حساسية. إن وجوده مفيد للغاية وقيّم بفعل ماضيه وما قام به في الماضي. أرجوك ألا تهمله ووفر له ولأسرته الرعاية التامة وأحطني علماً بأحواله كلها؛ حينها سنناقش كل شيء فيما بيننا ونوفر له المساعدة المطلوبة.)

وفيما كنا نتحدث عن بيوتر إلكسيفيتش وجيله، مشينا أنا وفلاديمير إليتش في الكرملين بإتجاه مبنى السوفناركوم حيث ستعقد الجلسة الثانية لحكومتنا بعد ربع ساعة.

مقبلٌ موعد
المهرجان الذي
نكتبُ الآن تاريخه

■ الشهيد سعيد العويناتي

التقدمي

التقدمي العدد 161 ـ إبريل 2021 السنة التاسعة عشر SDPA 499

رئيس التحرير: د. حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي ـ سكرتير التحرير: عيسى الدرازي

مسافة

الحبُ قريب وحاسم جداً..
حدّ التعثر الوشيك والمتكرر لطفل مضحك يتدرب على المشي
حدّ دخول النسيم الخفيف ما إن تُفتح نافذة
حدّ خطوة أسير قد حان موعد إفراجه
حدّ قبلة عشاق لم يلتقوا منذ زمن بعيد
حدّ احتراق بصلة مفرومة على مقلاة ساخنة
حدّ انتشار عطر البخور على جمرة تشتعل
حدّ تلمس الموت لامرأة في غرفة المخاض
حدّ اقتراب قذيفة النهاية من رأس مقاتل أضاع خوذته بين الحقول
حدّ تكبد النجوم في مخيلة القصيدة
حدّ العناق الذي يجب أن يكون كلما توحدت النظرات الندية بالعشق
ككل صور الحياة القريبة المسافة.. تلك الصور السريعة والصارمة ..(هكذا يولدُ الحب)..

جنان العود